وصايا النساء بين الجاهلية والإسلام

وصيتا "أمامة بنت الحارث" و"الخنساء" نموذجًا

دراسة تحليلية نقدية

إعداد

د/ محمد محمد عبد الله حسن سلام

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

ورئيس القسم بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بدمنهور

وصايا النساء بين الجاهلية والإسلام وصيتا "أمامة بنت الحارث" و"الخنساء" نموذجًا دراسة تحليلية نقدية

محمد محمد عبد الله حسن سلام

قسم الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور

البريد الإلكتروني : mohamedsallam385.el@azhar.edu.eg

الملخص :

يعد فن الوصية من فنون الأدب الأثيرة والمؤثرة في المتلقي، حيث يمتد أثرها في الأجيال الإنسانية المتتابعة على مر العصور، وذلك لما تنطوي عليه من حكم وأمثال، وقيم وإرشادات، لا تقتصر عطاءاتها الثرة على الموصَى لهم، كما لا تقف عند حدود عصرهم.

وقد برع في ذلك الفن الأثير أوصياء كُثُر رجالًا ونساءً، وقد آثر هذا البحث استظهار هذا الفن الأدبي الثَّر لدى النساء من خلال وصيتين اثنتين نموذجًا:

الأولى "لأمامة بنت الحارث الشيباني"، والثانية "للخنساء بنت عمرو بن الشريد" من خلال دراسة تحليلية نقدية لهما، وذلك إيمانًا بدور المرأة في المجتمع الإنساني الذي تمثل نصف وجوده، كما أنها تقوم باحتواء النصف الآخر تزاوجًا وتناسلًا، وتربية، ورعاية، وحنانًا، وإعدادًا مناسبًا لمختلف ظروف الحياة في شتى أدوارها.

وقد جاءت وصيتا "أمامة" و "الخنساء مجسدتين لدور المرأة العربية والمسلمة خير تمثيل جاهليًّا وإسلاميًّا، من خلال نسيجهما الأدبي الراقي، وموضوعيهما اللذين بَرْهنا على قدرة المرأة على النهوض بمسئولياتها خير قيام، فرحًا وترحًا، سلمًا وحربًا، من خلال وصاياهما التي تعد خير زاد في كل حين للبنات وللبنين.

وقد بدا دور المرأة جليلًا نحو سعادة المجتمع وتكامله في العصر الجاهلي من خلال وصية "أمامة" لابنتها ليلة عرسها، ثم تطور دور المرأة العربية وازداد جلالًا في العصر الإسلامي لقيامها بأجل الأدوار وأخطرها نحو أمن المجتمع وأمانه، وبقائه عزيزًا أبيًّا مرفوع الراية بين كل المجتمعات الإنسانية من خلال وصية "الخنساء" لبنيها ليلة موقعة القادسية.

الكلمات المفتاحية للبحث: وصايا النساء بين الجاهلية والإسلام.

The wills of women between pre-Islamic and Islam and the commandments of "Umamah bint al-Harith" and "al-Khansaa" as a model critical analysis study

Muhammad Muhammad Abdullah Hasan Salam
Department of Literature and Criticism at the College of Islamic and Arabic Studies for Girls in Damanhour
Email : mohamedsallam385.el@azhar.edu.eg

Abstract :
The art of the commandment is one of the influential and favorite arts of literature in recipient, as its impact extends on the successive human generations throughout the ages, this is because of the wisdom, proverbs it entails, the values and guidelines that the limits of its wealthy bids do not stop at the limits of the recipient.
Many men and women have excelled in this art, and this research has preferred to present this art in women through two commandments as an example:
The first is for "Umamah bint al-Harith al-Shaibani," and the second is for "al-Khansaa bint Amr ibn al-Sharid" through a critical analytical study of them, this is due to the belief in the role of women in the human society, which represents half of its existence, as it embraces the other half through mating reproduction, upbringing, care, and kindness.
The commandments of "Umamah" and "Al-Khansaa" embody the role of Arab and Muslim women in the best way to represent in pre-islamic and Islam, through their sophisticated literary construction, and their themes, which have proven woman's ability to fulfill her responsibilities In the best way whatever the circumstances, joy or sadness, peace or war, through her commandments that may be for boys, as it might be for girls.
The role of the woman appeared in her determination towards the happiness of society and integrity of society in the pre-Islamic era through the commandment of "Umamah" to her daughter on her wedding night, then the role of the Arab woman developed and became more glorious in the Islamic era for her fulfilling the most dangerous roles towards the security and safety of society, and for remaining preciuos and proud among all human societies Through the commandment of "Al-Khansa" to her sons on the night of the Qadisiyah war.

Keywords: Women Commandments Between Jahiliyyah And Islam.

المقـــــــدمـــة

من المسلَّم به أن المرأة تمثل نصف المجتمع، لكن ليس معنى ذلك أن دورها ينحسر أو يتوقف عند هذا الحد؛ إذ إن دورها فـــي المجتمـــع يمتـــد لاحتواء النصف الآخر تآلُفًا وتزاوُجًا وتناسُلًا، وتربيةً ورعايةً وتحْنانًا..

والأولاد هم فلذات الأكباد ذُكُورًا كانوا أو إناثًا. والأمهات أكثر تحمُّلًا لهموم الأولاد وتبعات تربيتهم، كما أنهن بالبنات أقوى ارتباطًا، وأشد شـــغفًا لإسعادهن وتأمين مستقبلهن وتهيئتهن لممارسة حياة جديدة، إذ يتحولْن مـــن حياة التفرد إلى حياة التزاوج التي يتحولن من خلالهـــا إلـــى أمهـــات فـــي المستقبل.

وشغف الأم وقوة ارتباطها بالبنات، ليس معناه إهمال البنين؛ فقد حفظ لنا الأدب العربي كثيرًا من وصايا الأمهات لأولادهن علـــى الســـواء إناثًـــا أو ذُكُورًا في مختلف الظروف والأحوال..

ولذا كانت هذه الدراسة لوصيتين من وصايا الأمهات لأولادهن: بنين وبنات:

- إحداهما: تتمثل في وصية "أمامة بنت الحارث لابنتها ليلة عرسها" (فـــي العصر الجاهلي).
- وثانيتهما: تتمثل في وصية "الخنساء" لبنيها ليلة معركة "القادســـية" (فـــي عصر صدر الإسلام).

أهمية البحث:

تسهم هذه الدراسة في الكشف عن جماليات فن الوصايا، ذلك أنه يمثل بنية لغوية تمزج وظيفتها بين جلالهـــا الموضـــوعي، وجمالهـــا اللغـــوي والأسلوبي من خلال هاتين الوصيتين لما تشـــتملان عليـــه مـــن نصـــائح وإرشادات اجتماعية راقية، وقيم أخلاقية وفكرية وإنسانية خالدة.

إشكالية البحث:

تتجلى إشكالية البحث من خلال طرح عدد من التساؤلات التي تتصل بطبيعة موضوع الدراسة على النحو الآتي:

١- كيف يمكن ضبط إيقاع حركة الأسرة والمجتمع من خلال العمل على تنقيتهما من كل ما يعتورهما من شوائب وهنات في الحاضر؟

٢- إلى أي مدى يتمثل الارتباط بين الأمهات المعاصرات في دورهن التربوي بالأمهات في الماضي؟ وهل تمتلك الأمهات من الوسائل والآليات ما يعينهن على ذلك؟

٣- في ظل مواجهة الغزو الفكري الذي بات يتسلل إلى عاداتنا وتقاليدنا التربوية، ما مدى قيام الأمهات بدورهن في هذه المواجهة نحو هويتنا العربية والإسلامية؟

٤- في ظل عمل المرأة في الآونة المعاصرة، حيث يضاف إلى رصيدها في مسئولياتها الأسرية والمجتمعية مسئولية وظيفية، إلى أي مدى يمكن اضطلاعها بمسئولياتها بصورة تعبر عن شمولية دور المرأة العربية والمسلمة بتوازن لا يجعلها تنفك عن أصيل جذورها، ولا تغضي عن سيل عطاءات حاضرها، كي تسير بأمان نحو مستقبلها؟

ولذا فإن وصية "أمامة بنت الحارث" التي تعد جامعة – بدرجة كبيرة– في بابها جديرة بالدراسة؛ حيث لم تكدَ تدَع شيئًا يعمل على تهيئة البنت ليلة عرسها أحسن تهيئة تجعلها تنعم في حياتها الجديدة، وتسعد مع طرفها الثاني ومن يرتبطون به في شتى الظروف..

وقد جمعت "أمامة" في وصيتها بين سمو اللغة، وشرف المعاني، واستقامة الفطرة، والجنوح إلى تزويد العقل بما هو أجدى، وتغذية الوجدان بما هو أجمل بصورة تُجلِّي أن الوصية لدى المرأة في العصر الجاهلي منها ما يصل إلى مستوى جدير بتقدير الإسلام السمح، إذ يقدِّر معدن الإنسان النفيس في كل عصر من خلال بيان الرسول ﷺ "الناس معادن كمعادن

الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام"[١] ثم في تقدير الأزهر الشريف بوسطيته المتوازنة، إذ يقدِّر الإنسان في كل حال..

وكذا تُعَدُّ وصية "الخنساء" دُرَّة فريدة على جبين الأمهات والآباء على السواء؛ حيث علت الأم على شديد مصابها بصورة قد يندر أن نجد لها مثيلًا في الثبات على الحق في مواجهة الفقد الذي لم تفقد فيه أحد فلذات كبدها فحسب، بل فقدتهم جميعًا دفعة واحدة..

وقد جاءت وصيتها نموذجًا تاريخيًّا لفن الوصية لدى المرأة المسلمة، تلك المرأة التي تفوَّقت في الإسلام على نفسها، وعلى بنات جنسها بمكتسبات دينها القيِّم الذي أمدَّ عقلها وقلبها ولسانها بخير مداد عمل على احتوائها لمصابها بصورة منحتها من التشريف والتكريم والخلود ما منحتها..

ويتمثل في الوصيتين موضوع هذه الدراسة مدى خبرة المرأة العربية والمسلمة التي وسِعت الحياة في مختلف مواقفها ومتغيراتها، تلك الخبرة التي تَحصَّلت من خلال ثقافة عبَّرتْ عن مدى الوعي البالغ لدى المرأة العربية جاهليةً، ثم مسلمةً مؤمنةً، ذلك الوعي الذي غامت ملامحه المضيئة، كما أن معطياته البناءة قد غابت، أو كادت تغيب عن مخيلة المرأة العربية والمسلمة في هذه الآونة من حياتنا المتماوجة، بل المتفجرة كل يوم، وكل ليلة، بل كل ساعة أو أقَلّ بكم هائل من الشواغل من خلال عديد من الوسائل التي قد تعز في وجودها واختلاط آثارها على الحصر دون أن يقتصر أمرها على الأمهات، بل إن الأمر ليشمل الآباء قبل الأمهات وكل من له مسئولية اجتماعية نحو أسرته ووطنه من خلال التوجيه النبوي الجامع: "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته"[٢].

(١) أخرجه مسلم في باب الأرواح جنود مجندة، رقم (٢٦٣٨).

(٢) حديث نبوي شريف، رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، متفق عليه.

وفي هذه الآونة تبدو الأمهات البعض منهن – وهذا البعض غير قليل– قد شُغلن عن مسئولياتهن التربوية، أو ابتعدن عن دورهن التخطيطي للحياة حين تبتهج، أو تتأزَّم.

وبدلًا من أن تقدِّم الأم للمجتمع زوجة صالحة تعين زوجها على صروف الدهر، إذا بها تقدم للمجتمع زوجة تُعين الدهر على زوجها.

وبدلًا من أن تقدم الأم – من بين هذا البعض من الأمهات – للمجتمع رجلًا صَالِحًا متجلِّدًا أمام تلك الصروف والظروف، إذا بها تقدم للمجتمع رجلًا يعين الدهر على مجتمعه، إما بعدم أهليته للمسئولية، وإمّا بأهليته، ولكنه – لعدم تَعوُّده تحمُّل المسئولية – يتقاعس، أو يهرب، أو يستسلم..

أسباب اختيار الموضوع:

تبدو أسباب اختيار الموضوع – فضلًا عما سبق ذكره – عديدة وجليلة، على أن من أبرزها ما يأتي:

- يتمثل أول هذه الأسباب من خلال دعاوى متواترة عن تَخلُّف المرأة العربية بصفة عامة، والمسلمة بصفة خاصة، تلك الدعاوى التي تصور الأولى حبيسة موروث جاهلي، والثانية حبيسة حدود دين يحصر مهمتها داخل إطار قوامة الرجل من خلال منظور اجتماعي ونقدي غير مستقيم..
- وأما السبب الثاني، فيتمثل في تَفشِّي ظاهرة التفكك الأُسَري، وافتقاد روح المودة والرحمة بين الأزواج، تلك الروح التي جعلها الإسلام الحبل السُّري والرباط الروحي الذي صنعه منهج الإسلام، وصوَّره القرآن الكريم من خلال قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(١).

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

- وأما السبب الثالث، فيتمثل من خلال ما بدأ ينتاب هوية شبابنا من هشاشة في ارتباطه بوطنه الكبير، وأمته الكريمة من خلال ما بات يتسلل إلى أبنائنا وبناتنا بخبث ودهاء تحت عباءات مبطنة بدعاوى مدنية زائفة تعمل على إيهام بناتنا ونسائنا بأنهن لن يصِرْن متحضرات إلا إذا سايرن المرأة الغربية المتحضرة في سلوكها وعاداتها وتقاليدها..

أهداف البحث:

تتمثل الغاية من خلال هذه الدراسة تحقيق عدة أهداف تتمثل على النحو الآتي:

١- استجلاء القيمة الفنية والأدبية لفن الوصايا بوصفه فنًا أدبيًا أثيرًا ثريًا.

٢- استجلاء القيم الموضوعية لتنوع موضوعاته ومضامينه من خلال هاتين الوصيتين.

٣- الكشف عن الجماليات الفنية لفن الوصايا ومدى تأثيرها في المتلقي من خلال هاتين الوصيتين.

٤- محاولة ربط الحاضر بصورة تعمل على تغذيته بروافد أصيلة من ماضيه المشرق، وتنقيته من شوائب المستجدات، وترقيته للوعي بكل ما هو آت.

منهج البحث:

نظرًا لطبيعة هذه الدراسة، فقد اقتضت الدراسة أن تعتمد على المنهج التحليلي بصورة أساسية، دون إغفال للإفادة من أي منهج يعين على إخراج البحث في صورته المأمولة.

خطة البحث:

اقتضت خطة الدراسة أن يكون البحث في ثلاثة فصول يسبقها مقدمة وتمهيد، ويلحقها خاتمة، وقائمة بمصادر البحث ومراجعه، ثم فهرس بمحتويات البحث وأرقام الصفحات، وذلك على النحو الآتي:

- **مقدمة:** عن أهمية الموضوع، وأسبابه، ومنهجه، وخطته.
- **تمهيد:** عن الوصية، مفهومها، وتاريخها، وتطورها وآثارها في الجاهلية والإسلام.
- **الفصل الأول: الوصيتان دراسة موضوعية**
  - **المبحث الأول:** وصية "أمامة" لابنتها دراسة موضوعية
  - **المبحث الثاني:** وصية "الخنساء" لبنيها دراسة موضوعية
- **الفصل الثاني: الوصيتان دراسة فنية**
  - **المبحث الأول:** وصية "أمامة" دراسة فنية
  - **المبحث الثاني:** وصية "الخنساء" لبنيها دراسة فنية
- **الفصل الثالث: الوصيتان والموصيتان في ميزان النقد الأدبي**
  - **المبحث الأول:** الموصيتان في ميزان النقد الأدبي
  - **المبحث الثاني:** الوصيتان في ميزان النقد الأدبي
- **الخاتمة:** وبها أهم نتائج البحث
- **قائمة بمصادر البحث ومراجعه**
- **الفهرس**

تمهـــــيد

•الوصية في اللغة:

الوصية في معاجم لغتنا العربية لها معانٍ عديدة وجليلة، وهذا يشي بجلالها وأثرها فنًّا أدبيًّا ثريًّا وأثيرًا، تظل بذلك معينًـــا ثـــرًّا يُســـتمَد مـــن معطياتها، ويستمر عطاؤها..

ومن جلالها لغويًّا: أن مادتها (وصى) قد وردت بمعنى "العهد" ففي لسان العرب "أوصى الرجل ووصاه: عهد إليه، وتواصى القوم: أي أوصى بعضهم بعضًا، وفي الحديث الشريف "استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنهن عوان عندكم" معناه: يفرض عليكم؛ لأن الوصية من الله إنما هي فرض"(١).

وكون الوصية بمعنى العهد، فهذا يمنحها جلالًا لما للعهد من جلال، كما يمنحها حق الرعاية والتقدير، لما يستحقه العهد من الحفـــظ والرعايـــة والوفاء..

ومن دلالاتها اللغوية التي تمنحها تواصلًا واستمرارية أنهـــا وردت بمعنى "الوصل" ففي مقاييس اللغة "وصل، من قولنا: وصـــيت الشـــيء إذا وصلته، ووصيت الليلة باليوم إذا وصلتها"(٢).

وفي العين "نبت واصٍ، أي متصل من قولنا: قطعنا أرضًا واصيةً، أي أن نبتها متصل قد امتلأت منه"(٣).

ولذا سُمِّيت الوصية بهذا لاتصالها بأمر الموصِي قبل أن يتـــرك أو يودِّع من يهمه أن يوصيهم، أو يودعوه أو يتركوه..

وكذا لاتصالها بأمر الموصَى له قبل الانتقال إلى مآل وحال جديدة..

والوصِي: الذي يوصِي، وكذا الذي يوصى له، فهو من الأضداد"(٤).

---

(١) معجم لسان العرب لابن منظور، مادة (وصى).

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (وصى).

(٣) معجم العين للخليل بن أحمد، مادة (وصى).

(٤) معجم لسان العرب لابن منظور، مادة (وصى).

الوصية في الاصطلاح الأدبي:

تتباين تعريفات الوصية لدي الأدباء قديمًا وحديثًا، حيث يتحلى بعضها بشيء من الإطناب، وبعضها بشيء من الاقتضاب، وتتباين في الصياغة، على أنها تكاد تتفق في الغاية.

ومن هذه التعريفات قديمًا ما ذكره "أسامة بن منقذ" في كتابه لباب الآداب، إذ يقول: "الوصية وصيتان: وصية الأحياء للأحياء، وهي أدب، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتحذير من زلل، وتبصرة بصالح عمل. ووصية الأموات للأحياء، عند الموت بحق يجب عليهم أداؤه، ودَين يجب عليهم قضاؤه"(١).

ومن تعريفاتها حديثًا ما ذكره محمد نايف الدليمي "بأنها نوع من أنواع الأدب الحي الرفيع المنزلة، تنتقي ألفاظها انتقاء ممتازًا، يطلقها مجرب حياة ودنيا، فيشرع فيها نهجًا قويمًا، وسلوكًا تنظيميًا لإنسان عزيز عليه، أو مهم لديه يبصره ما ينبغي عليه أن يفعله فيما يستقبل من حياة إذا ادلهم خطب، او حزب أمر في مجالات الحياة المتعددة الأطراف المترامية الجوانب"(٢).

ومن تعريفاتها حديثًا كذلك ما ذكره صلاح الدين الهادي، إذ يقول (٣): "الوصايا لون من النثر الفني قديم في اللغة العربية، عرفه العرب، وتناولوا فيه بعض جوانب حياتهم الاجتماعية، وضمنوه نظراتهم الحكمي، وخطراتهم الذهنية في الأخلاق والاجتماع".

ولا يخفي أن تعريف أسامة بن منقذ لم يقتصر علي بيان مدلول الوصية من الوجهة الأدبية، حيث جمع في تعريفه بين مدلولها أدبيًا ودينيًا،

(١) أسامة بن منقذ: لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة الرحمانية ١٩٣٥م، ص١.

(٢) د. محمد نايف الدليمي: جمهرة وصايا العرب، دار النضال، بيروت، ١٩٩١م، ج١، ص١٨.

(٣) د. صلاح الدين الهادي: الأدب في عصر النبوة والراشدين، مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٨٧م، ص١٩٩.

كما لا يخفي ما تحلى به تعريف الدليمي من شرح وإيضاح، وما تحلى بـه تعريف صلاح الدين الهادي من إيجاز واقتضاب.

ولذا يمكن الإفادة من تلك التعريفات وغيرها من أجل صياغة تعريفية لفن الوصية تطمح إلى مزيد من الدقة والضبط على هذا النحو الآتي:

الوصية في الأدب: فن نثري، يصدر من وصِيٍّ خبير، في قول موجز بليغ، إلى من هم في حاجة إلى خبرة الأوصياء، في شتى المناسبات بصورة أثيرة ومؤثرة.

الوصية في العصر الجاهلي:

يضرب فن الوصية بجذوره الأصيلة في أعماق العصر الجاهلي، حيث ارتبط به إنسان ذلك العصر وِفْق أحداثه وتجاربه، وما أتيح له من خبرات عبَّرتْ عن المستوى الفكري والأدبي الذي وصل إليه، حيث كانت الوصية خير مثال اختزَن من خلاله الموصِي خلاصة تجاربه في الحياة، ثم صاغ عصارة تجاربه وأفكاره في صورة وصية تتميز بالإيجاز في التعبير الذي يحمل المعنى الغزير في إطار أثير يتحلى بالمنطق والإقناع، حيث تنُمُّ عباراته عن مراس بالحياة وحكمة، تذيع بين الناس ويصير كثير من عباراتها أمثالًا سائرة، خارجة بذلك من إطار وأسار الذاتية إلى رحاب العمومية، بل إنها لتخترق حدود الزمان وفواصل المكان..

ولذا فلا غرابة أن تكون الوصية موجهة إلى شخص بعينه توجيهًا خاصًّا، غير أنها لسُمُو فكرها، ورُقي أدبها، ودقة لغتها، يمكن أن يفيد منها مجتمع إنساني، بل مجتمعات بأسرها، لا في عصر واحد، وإنما في عصور متواصلة، وذلك لخروجها في توجيهها من الخاص إلى العام..

وقد جاءت الوصايا في العصر الجاهلي على النحو الآتي:

- وصايا الحكماء والزعماء إلى أبنائهم وأقوامهم، ويغلب عليها أنها تكون في شئون عامة، يوجه فيها الحكماء أبناءهم وأقوامهم: أفرادًا وجماعات من خلال نصائح حكيمة في صورة نصائح وحكم موجزة.

- وصايا الآباء والأمهات للأبناء وأبناء الأبناء في شتى المناسبات: حِلًا وترحالًا، فرحًا وترحًا، حربًا وسلامًا.

وقد ذكر محمد نايف الدليمي صاحب جمهرة وصايا العرب أنواعًا كثيرة للوصايا في العصر الجاهلي (١)، لكنها لا تكاد تخرج عن النوعين المذكورين سلفًا.

وقد زخر العصر الجاهلي بعدد من الوصايا الأثيرة التي نُسبت لعدد من الموصِين البارزين في هذا المجال من الرجال والنساء أمثال: أكثم بن صيفي، وعامر بن الظِّرب، وذي الأصبع العدواني، وأمامة بنت الحارث صاحبة إحدى الوصيتين محل هذه الدراسة..

الوصية في عصر صدر الإسلام:

لا ريب في أن تطورات عديدة في عصر صدر الإسلام قد عملت على تغيير وجه الحياة والأحياء عَمَلًا وقولًا، تأثُّرًا بالقرآن الكريم، وبيان النبي الكريم، بما اشتملا عليه من تعاليم وآداب ووصايا في كل الظروف والمستجدات، حيث حرص الإسلام على بثِّ عطاءات منهجه في نفوس شتى فئات الناس بوسائل شتى حتى تستقيم حياة الإنسان في صلته بخالقه من جانب، وصلته بمجتمعه الإسلامي والإنساني من جوانب أخري في مختلف الظروف سلمًا واستقرارًا، وحربًا وصراعًا..

وقد تجلَّى أثر الإسلام جليلًا من خلال وصاياه السامية في الأدب وفنونه بصفة عامة، وفن الوصية بصفة خاصة، حيث عمل منهجه الثري القويم على ثراء هذا الفن فكرًا ومادة، وموضوعًا ومنهجًا، وذلك على خلاف ما ذهب إليه بعض الكتاب، إذ يقول: "على أن من الوصايا التي نؤرخ لها في صدر الإسلام، ما قيل في أغراض اجتماعية أو أخلاقية كوصية أبي الأسود الدؤلي لابنته ليلة زفافها، ووصية أمير المؤمنين لابنه الحسن،

(١) ينظر في ذلك جمهرة وصايا العرب، ج١، ص٢٣.

وغيرهما، وهذا النوع من وصايا صدر الإسلام لا يكاد يختلف في شكله ومضمونه عن الوصايا الجاهلية، اللهم إلا فيما نزع إليه الأسلوب الإنشائي بعامة في هذا العصر من البساطة، والبعد عن الألفاظ البدوية الخشنة، والإقلال من السجع، والبعد عن النزاعات الجاهلية" (١).

وغني عن البيان ما يبدو على مثل هذا الرأي من مجافاة لحقيقة تطور فن الوصية وتنوعه في عصر صدر الإسلام.

وقد تنوعت الوصايا في عصر صدر الإسلام، فكان منها:

- الوصايا الدينية، وهي تختلف في مضامينها وغاياتها عن وصايا الجاهلية التي كانت ترمي إلى خير الإنسان وسلامه في الدنيا، بينما ترمي الوصايا في الإسلام إلى خير الإنسان وفوزه دنيا وآخرة.
- الوصايا السياسية: مثل وصايا الخلفاء والولاة والأمراء..
- الوصايا الاجتماعية: وتكون في المناسبات الاجتماعية في الإقامة والسفر..
- وصايا الحرب، ومنها وصية "الخنساء" إحدى الوصيتين محل هذه الدراسة..

(١) د. صلاح الهادي: الأدب في عصر النبوة والراشدين، ص٢٠٠، ٢٠١.

الفصـــــــل الأول
وصيتا "أمامة بنت الحارث" لابنتها و "الخنساء" لبنيها
دراسة موضوعيـــــة

الفصل الأول

وصيتا "أمامة بنت الحارث" لابنتها و "الخنساء" لبنيها

دراسة موضوعية

المبحث الأول:

وصية "أمامةَ بنتِ الحارث"[1] دراسة موضوعية

نص الوصية:

قالت "أمامةَ بنتِ الحارث" زوجِ "عوفِ بن مُحَلِّم الشيبانيّ" لابنتها "أم إياس" عند زفافها[2]:

"أي بنية: إن الوصية لو تُرِكَتْ لفضلِ أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.

ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها؛ كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال.

أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا.

فكوني له أَمَةً، يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا.

يا بنية: احملي عنى خصالاً عَشْرًا، تكن لك ذخرًا وذكْرًا.

- الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.
- والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينُه منكِ على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود.

---

(١)ينظر العقد الفريد لابن عبد ربه، تحقيق عبد المجيد الترخيني، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٨٣م، ج٧، ص١١٩، ١٢٠.

(٢) د. أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، ط١، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

- والتعهد لوقت طعامه، والْهُدُوُّ عنه عند منامه؛ فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مغضبة.
- والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحِشمه وعياله.

فإن الاحتفاظ بالمال حسنُ التقدير، والإرعاء على العيال والحَشَم جميل حسن التدبير.

- ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيتِ سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أَوْغَرْتِ صدره.
- ثم اتقي من ذلك الفرح إن كان تَرِحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولي من التَقصير، والثانية مِن التكدير.
- وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظامًا؛ يكن أشدَّ ما يكون لكي إكرامًا. وأشد ما تكونين له موافقة؛ يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.
- واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تُحبين حتى تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهت. والله يَخير لك".

الوصية: مُنشِئتها ومناسبتها:

أمامة بنت الحارث:

هي أمامة بنت الحارث الشيباني، سليلة نسب كريم، وشرف رفيع، حيث كان أبوها شريفًا وسيدًا في قومه، ولذا نشأت فصيحة نبيلة، عاقلة لبيبة، حائزة كثيرًا من الصفات الجميلة، وتزوجت بعوف بن مُحَلِّم الشيباني [(١)].

مناسبة الوصية:

رُوِي أن الحارث بن عمرو ملك كِنْدَةَ بلغه أن عوف بن مُحَلِّم الشيباني له ابنة تدعى "أم إياس" يتحدث الناس عن جمالها الفائق، وعقلها السامق، فضلًا عن كرم أصلها، وشرف نسبها.

(١) محمد التونجي: معجم أعلام النساء، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ص٣٩.

ولذا دعا ملك كِنْدَةَ امرأة يُقال لها: "عصام" ذات عقل وأدب وبيـــان، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف.

فمضت "عصام" حتى انتهت إلى "أمامة بنت الحارث" فأعلمتهـــا بمـــا قَدمَتْ له.

فذكرت أمامة إلى ابنتها قصة "عصام" وقالت: أي بنية. هذه خالتـــك، أتتك لتنظر إليك، فلا تستري عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجه أو خلـــق، وناطقيها إن استنطقتك.

فلما جلست "عصام" مع "أم إياس "ونظرت إلى ما لم تر قـــط مثلـــه! خرجت مِن عندها وهي تقول: "ترك الخِداع مَنْ كَشَفَ القناع" فأرسلتها مثلاً.

ثم انطلقت إلى الملك، فلما رآها مقبلة قال لها: ما وراءك يا عصـــام؟ قالت: "صَرَّح المَحْضُ عن الزَّبَد" (١).

وجعلتْ تفصِّل أوصافها كما عاينتها وخبَرَتْها..

فأرسل الملك إلى أبيها، فخطبها، وقدم إليه صداقها..

ولما تم تجهيزها، وحان وقت زفافها إلى زوجها، كانت هذه الوصية التاريخية من الأم الرؤوم "أمامة" إلى ابنتها العروس الميمونة "أم إياس (٢).

مع الموصية في وصيتها:

استهلال الوصية:

استهلت "أمامة" وصيتها بعبارات قصيرة سلسة، عميقة المعاني، غنية بالإرشادات، ممتزجة بمدح واقعي فيه تقدير للموصَى لها، وتنبيه لما قد تغفل عنه من أمور يسيرة، إلا أن الغفلة عنها قد يؤدي إلى الوقـــوع فـــي أمـــور كبيرة، على نحو ما تقول(٣):

---

(١) تعنى بالزبد: رغوة اللبن، وبالصريح: اللبن الذي تحته المحض، وهذا مثل يُضرب للصدق يحصل بعد الخبر المظنون. "لسان العرب"، مادة: (ز ب د)، ومادة: (ص ر ح).

(٢) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

(٣) السابق نفسه.

"أي بنية: إن الوصية لو تُرِكَتْ لفضلِ أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.

ولو أن امرأة استغنت عن الزوج(*) لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها؛ كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال".

لقد تجاوزت الأم عاطفتها المعهودة وعواطف مثيلاتها في مثل تلك الليلة، إذ يَرُحنَ في سلك من البكاء الذي يسيل شعيرات تجري فرحًا وفراغًا، لتنهض عاطفتها الحكيمة، إذ تدرك مدى ما تكون فيه ابنتها من رهبة نفسية شأن كل فتاة في مثل تلك الليلة، حيث لا تنسى ذلك الظرف الذي عاشته من قَبْلُ..

ولذا فإنها تسكب من عاطفتها في روع ابنتها مقادير من السكينة والأنس، ممزوجة بمقادير أخرى من التعقُّل والتلطُّف، حيث طفقت تهمس بما تكون النفس إليه أحوج، ويكون الحُسن به أجْلَى وأوفق، إذ يعمل ذلك على غرس الثقة في وجدان ابنتها التي هيأتها أحسن تهيئة، حبًّا وتقديرًا، ورضًا وحنانًا، مما يؤدي إلى هدوء نفسية الابنة وطمأنتها، والشروع في تفعيل ذلك بإعمال كل مؤهلاتها لممارسة حياتها الجديدة كأجمل ما تكون الحياة..

طبيعة الأسرة العربية:

تحيط الأسرة حياة بناتها بسياج من الستر يجعلها تحيا في إطار (البعد الواحد) حفاظًا عليهن، غير أن مسيرة الحياة تصل في حين ما بطبيعة الحال إلى محطة تفرض على الأم أن تنهض لتفتح دائرة الانغلاق التي آن أوان انفتاحها على حياة جديدة، حيث تُسهم مساهمة أمينة في تشكيل جديد لعقلية ابنتها تشكيلًا ذا أبعاد وآفاق جديدة، لن تكون معها في تلك الآفاق، حيث تقود

(*) ـــــــ فضل أدب: زيادة أدب.

الابنة زمام أمرها بيدها، على نحو ما يتجلى في المقدمة كذلك، إذ تقول الأم لابنتها (١):

"أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين (*) لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا".

"فكوني له أمة يكن لكي عبدا".

لقد أرادت الأم أن توقظ في وعي ابنتها حسَّ المسئولية، وتشعل وهج وعيها بذاتها عن طريق إقامة جسور التواصل مع (القرين) الذي يغدو ذا دور رئيس ممثلًا طرف الإيجاب في أبعاد حياتها الجديدة، تلك الحياة التي تبدأ بفرح وطقوس جميلة، ويُرجَى أن تستمر في ظلال من المودة والتآلف والانسجام..

الإبداع الفكري في الوصية:

النجاح الذي ترجوه الأم لابنتها لن يتحقق إلا بمعالجة ما يتوقع أن يحدث جرَّاء حدوث سلبيات تنساب في قطرات هينة، لكن الاستهانة بها قد يؤدي إلى تكاثرها لتمثل مستنقعًا قد يؤدي إلى غرق الأسرة بأسرها..

ولذا فقد حاولت الأم معالجة ذلك بتقديم سُبُل الوقاية لابنتها في صور تتحلى بعفوية فطرتها النقية، بعيدًا عن جنوح الفلسفة، إذ تسلِّم بطبيعة الحال واستقلال حياة ابنتها عن إطار نشأتها، وخروجها من محيطه، لتتصل بمحيط جديد مع أليف جديد..

---

(١) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

(*) – الجو: الفضاء بين السماء والأرض، والمقصود هنا البيت والبيئة التي نشأت فيهما.

– خلفت العش الذي فيه درجت: تركت بيت والدك الذي تدرجت فيها نشأتك.

– وكر: تقصد به بيت الزوجية.

– قرين: زوج وصاحب.

معرفة حدود الذات:

إدراك المرء حدود ذاته يجعله يتعامل مع الآخر بموضوعية تحقق له السلامة التي تفتح الطريق للانطلاق والبناء، في حين يؤدي الجهل بالذات، إضافة إلى الجهل بالآخر إلى ألوان من الهور والتخبط والتردِّي..

ولذا فقد حاولت الأم أن تُقوِّم في ذاكرة ابنتها الموروث النابع من أغوار الغرور الذي قد يكون أقوى عائق لامتداد فروع المستقبل في آفاق من الحرية والنمو والسمو الإنساني، حيث عمدت الموصية إلى أن تغرس في ابنتها حقيقة تكامُل الحياة التي لن يتحقق تكاملها من خلال طرف واحد، على نحو ما قررته إذ تقول (١):

"**ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها؛ كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال**".

الوصية وواقعية متبصرة:

الوصية في حقيقتها لا تُعَد لونًا من الترف الأدبي يُساق في مثل تلك المناسبة للسلوى والمسرة، وهي هنا تبدو نتاجًا أدبيًّا واقعيًّا مثمرًا، حيث لم تُغفِل الأم في وصيتها لابنتها العروس شأن القرين الذي لم تكن الوصية له، غير أنها أعطته مكانته اللائقة، حيث جعلته سيدًا وملكًا متوجًا، لا عن عبودية واسترقاق لقرينته، ولكن عن مودة ورقة تجعل تلك القرينة ملكة متوجة، إذ تغرس كذلك مودتها في قلبه ووجدانه، على حد قولها لابنتها (٢):

"**فكوني له أَمَةً، يَكُنْ لكِ عبدًا**".

إنها بهذه الواقعية المتبصرة تعين ابنتها على أن تعبر جسور ماضيها، لا إهمالًا له، ولكن إعمالًا للاتصال بالمستقبل، حيث كان الماضي واقعًا، والمستقبل خيالًا أو تصورًا، والآن يبيت الماضي ذاكرة الحاضر والمستقبل، ويغدو المستقبل هو الواقع الذي ينبغي أن تتعامل معه بواقعية وبصيرة..

---

(١) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

(٢) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

من مظاهر الواقعية في الوصية:

كثيرًا ما يدخل أبناؤنا، ولا سيما البنات في مثل تلك الحقبة في دائرة من الاضطراب بين طرف يمثل الماضي بمُثُله وقِيَمه، وطرف آخر يمثل المستقبل بتطلعاته وآماله دون التركيز على الواقع الذي يعيشون فيه، ولذا طفقت الموصية تطوِّف بوجدانات ابنتها مبصرة إياها كيف تكون الصحبة، والمعاشرة، وذلك باتباع تعاليم وصيتها بما تحمله من معانٍ ونصائح تتجلي على النحو الآتي:

- قيام الابنة الزوجة بما ينبغي أن تقوم به من اهتمام نحو زوجها حتى ولو بنظرة العين وكُحْلها، وتَشمُّم الأنف وريحها، وقطرات الماء وطيبها..
- الحفاظ على بيت الزوج، وماله، وعياله، ويمتد هذا الحفاظ ليشمل حشمه وخدمه..
- وجوب حفظ أسرار الزوج، وحسن طاعته..
- إيثار إعظام الزوجة لزوجها، يحقق لها ما تحبه من إكرامه إياها..
- إيثار الزوجة رضا زوجها على رضاها، وهواه على هواها يمثل السبيل إلى بلوغ الغاية، وتحقيق الآمال، على نحو ما تَمثَّل في الوصية من خلال قول أمامة لابنتها(١):

"يا بنية: احملي عنى خصالاً عَشْرًا، تكن لك ذخرًا وذكْرًا.

- الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.

- والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه...

والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود.

- والتعهد لوقت طعامه، والْهُدُوُّ عنه عند منامه .....

- والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحِشمه وعياله .

(١) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

فإن الاحتفاظ بالمال حسنُ التقدير، والإرعاء على العيال والحَشَم جميل حسن التدبير(*).

- ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا .....

- وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظامًا؛ يكن أشدَّ ما يكون إكرامًا.

وأشد ما تكونين له موافقة؛ يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.

- واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تُحبين حتى تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك".

إن الموصية تعلم أن ابنتها وريثة سيادة، ومكتسِبة مزيدًا من سيادة؛ فهي ابنة سيد قومها، وزوجها ابن ملك، فليست بحاجة إلى أن تقوي سيادتها، وإنما هي في حاجة إلى أن تقوي علاقتها بقرينها، حيث تبادله مودة ورقة وحميمية بمودة ورقة وحميمية.

ولذا فإن الموصية لم تكن لتكتفي بأن تجعل وصيتها لابنتها مجرد وصية آمرة، إذ تُردِف بنحو آخر تَحسُّبًا للعوارض، فنراها تتجاوز الواقع إلى نطاق التوقع، وكيفية التعامل معه بمهارة، من خلال مزج وصاياها الآمرة بوصايا أخرى تحذيرية، حيث تحذرها من أمور تتمثل فيما يأتي:

- التحذير من أن تقع عينُ الزوج منها على قبيح، أو أن يشم منها غير الطيب من الريح.
- التحذير من إهمال وقت طعام الزوج، ووقت منامه؛ فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مبغضة.
- التحذير من أن تفشي الزوجة سرًّا لزوجها، أو تعصي له أمرًا، خشية غدره، وحُنْق صدره.

(*) - احملي عني خصالًا: تَلَقِّي وتَقَبَّلي صفات وعادات ونصائح.
- ذخرًا: ذخيرة تُدَّخَر وينتفع بها وقت الحاجة إليها.
- التعهد: التتبع والرعاية.
- التفقد: البحث والاهتمام.
- حشمه: خدمه وعماله.

- التحذير من الفرح في حال حزنه، والاكتئاب عنده حال فرحه؛ ففي الأولى تَقصير، وفي الثانية تكدير، على نحو ما تمثل في الوصية من تحذير الموصية ابنتها قائلة(١):

"لا تقع عينُه منكِ على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

- ..... إن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مغضبة.

- ..... إنك إن أفشيتِ سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أَوْغَرْتِ صدره (*).

إن العلاقة اللزومية من خلال هذا التمازج تتجلى في أسمى ما تكون سوية بهية؛ فالشيء يستدعي نظيره، والتناظر هنا لا يتجلى من خلال الندية في العلاقة، وإنما من خلال الحميمية بما تخلعه الزوجة على حياة زوجها من حنان وأنس تذيب به وحشته رغم سيادته، حيث يتجرع ذلك الحنان، وينعم بذلك الأنس الذي يدفعه ليقدم كل فروض الولاء لمولاته..

ولكي تنال الابنة الزوجة كل فروض الولاء من مُواليها الزوج، فإن الأم الموصية تزيد في إحسانها لابنتها من خلال وصاياها العشر في وصيتها، حيث تضيف إلى ذخيرة ابنتها الوصائية دفعة ختامية من وصاياها، التي يحمل بعضها صبغة توكيدية، ويحمل بعضها الآخر صبغة عمومية بصورة تضيف إلى براعة الاستهلال في بداية الوصية حسن الاختتام في نهايتها الذي جاء جامعًا رائعًا على نحو ما تمثل في قول أمامة لابنتها (٢):

"ثم اتقي من ذلك الفرح إن كان تَرِحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولي من التَقصير، والثانية مِن التكدير (*).

---

(١) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

(*) – أوغرت صدره: ملأتيه غضبًا وكراهية.

(٢) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

(*) – ترحًا: الترح نقيض الفرح.

– التكدير: شعور بالغم نتيجة حدوث ما لا يروق.

وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظامًا؛ يكن أشدَّ ما يكون لكي إكرامًا. وأشد ما تكونين له موافقة؛ يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.

واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تُحبين حتى تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهت. والله يَخير لك".

جاءت أولى الوصايا الختامية بليغة موجهة الزوجة إلى مراعاة كل أحوال الزوج بممارسة جميلة وحكيمة لكل ما تقتضيه جميع الأحوال.

في حين جاءت الوصية التالية جليلة كأنها من جلالها تاج لكل ما سبقها من وصايا، إذ تمارسها الزوجة لا إكراهًا، ولكن حبًا وإعظامًا لزوجها.

وإذا كانت الموصية قد أوصت ابنتها من قبل بحسن السمع والطاعة، فإنها تعود هنا لتأكيد ذلك بأشد ما تكون الطاعة والموافقة، إذ إنها تُعَد السبيل إلى دوام العشرة والمرافقة.

ثم كان مسك الختام من خلال وصية الأم لابنتها بخصلة جامعة لكل خير، ومبلغة الزوجة كل مناها ومرادها بإيثارها لزوجها في كل حال.

إن تربية الأجيال مسئولية جليلة وخطيرة، وكثيرًا ما يخطئ الآباء والأمهات، إذ ينشِّئون الأبناء في إطار من التفكير الأحادي الذي يُورِّث التعصب لهذا النوع من التفكير الذي يُغفِل ثراء الفكر الإنساني وتنوعه وتطوره وتحضره، وهذا ما دفع الأم الموصية إلى أن تحاول أن تزيل ركام العصبية من ذاكرة ابنتها، إذ تسِنُّ لابنتها دستورًا لحياتها الجديدة لا يغفل شأن القبيلة وشرفها، غير أن القبيلة ليست هي كل شيء؛ ذلك أن قيمة الإنسان الحقيقية لا تتحقق بانغلاقه على ذاته وتعصبه لقبيلته، بل بمعرفة الآخر وتقدير ذاته وذويه، من خلال التعارف والتواصل والانسجام الذي يُعَد الزواج له نواة أصيلة وجليلة..

المبحث الثاني:
وصية الخنساء: دراسة موضوعية

نص الوصية:

حضرت الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم من أول الليل(١):

"**يا بَني: إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين.**

ووالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبَنُو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خُنْتُ أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هَجَّنْتُ(*) حسبكم، ولا غَيَّرْتُ(٢) نَسَبَكم.

وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين.

واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية. يقول الله – تعالى –:
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣).

فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغْدُوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين.

فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرَتْ (*) عن ساقها، واضطرمت لظًى على سياقها، وجللت نارًا على أرواقها، فتيمموا وَطِيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها؛ تظفروا بالغُنم والكرامة، في دار الخلد والمُقامة.

---

(١) تنظر الوصية في الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢ه، ١٩٩٢م، ج٤، ص١٨٢٨.

(*) – هجنت حسبكم: قبحته بفعل ما يجعله ذا خسة.
– غيرت نسبكم: لطخته بما يشينه، ويغيره عن نقائه.
– اغدوا: باكروا وسارعوا.

(٢) رويت في غير ذلك من النسخ: غيرت.

(٣) سورة آل عمران: آية ٢٠٠.

(*) – شمرت عن ساقها: قويت واشتدت.
– اضطرمت: اشتعلت واتقدت.
– لظى: لهيبًا خالصًا.
– جللت: عظمت وأحاطت بكل المتقاتلين.
– تيمموا وطيسها: اقصدوا أشد مواقعها.
– خميسها: الجيش مكونًا من خمسة فرق، ميمنة وميسرة، وقلب ومقدمة وساقة.

مُنشِئة الوصية:

هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد.

وهي صحابية جليلة، وشاعرة مخضرمة، أدركت الجاهلية والإسلام..

وآل الشريد من سادات وأشراف العرب، وملوك قبيلة بني سليم في الجاهلية.

ولُقّبَتْ بالخنساء لارتفاع أرنبتي أنفها [١].

ميلادها ونشأتها:

ولدت الخنساء عام (٥٧٥م).

ونشأت في بيئة نجد التي كانت تعد مكاناً له خصائص ومميزات، نضحت على أهله وسكانه، فقد اشتهر أهل نجد بالبلاغة وقد ذهبوا في الشعر كل مذهب [٢].

شخصيتها:

وقد كانت الخنساء ذات أمر بالغ، وجاذبية طاغية جمالًا وجَنانًا، حتى لقد عدت من شهيرات النساء اللاتي عرفن بحرية الرأي وقوة الشخصية.

ولذا قال لها أبوها [٣]:

"يا خنساء! أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم، دريد بن الصمة يخطبك وهو من تعلمين.

فقالت – وكان دريد يسمع حديثهما –: "يا أبت: أتراني تاركة بني عمي مثل عود الرماح، وناكحة شيخ بني جشم؟

فخرج اليه أبوها فقال: "يا أبا قرة! قد امتنعت، ولعها تجيب فيما بعد".

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صابر، بيروت، ١٩٧٨م ج٦، ص٣٤.

(٢) ينظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج١٠، ص٧٢.

(٣) ينظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج١٠، ص٧٢.

فقال دريد: قد سمعت قولكما. قالها وهو منصـــرف، دون أن يزيـــد عليها.

ويبدو أن أخاها معاوية، أراد ان يجاور صديقه دريد فحاول معهـــا، ولكنها أصرت على موقفها من الرفض، في حين ظل صخر بجوارها بعطفه وحنانه.

عرف فيها أبوها رجاحة العقل، واتزان الفكر، فـــأبي إلا أن يكـــون زواجها بعد موافقتها، ولم يكن ذلك حقا لكل ابنة، وإنما هو خصيصة تمـــنح لمثيلات الخنساء".

على أنها لم تُوفَّق في زواجها من ابن عمومتها الذي انحرف، واستغل حرصها عليه أسوأ استغلال، طمعًا في مالها ومال أخيها صخر الذي كـــان كريمًا معها غاية الكرم.

إسلامها:

حين انتشر نور الإسلام، صحبت – وهي في طلائـــع شـــيخوختها – بنيها وبني عمومتها من بني سليم في عام (٨ هـــ – ٦٣٠م) وافـــدة إلـــى رسول الله ليعلنوا دخولهم في دين الله، مؤمنين برسوله ﷺ. وحسن إسلامها رضي الله عنها[١].

شعرها وأدبها:

لما مات أخوها صخر حزنت عليه حزنًا صار حديث الناس، حيـــث كانت لا تكاد ترى إلا هائمة على وجهها لا يعترض طريقها أحد، فراحـــت تبكيه وترثيه بشعرها، تبكي الأخ الكريم الرقيق الذي طالما امتدت إليها يده الحنون تفيض عليها بعطائها، وتمسح عنها عناءها، وتزيل عنها متاعبها..

ولذا لم يكن بد من أن يشيع في رجوع جزيـــرة العـــرب – لصـــدق عاطفتها في رثائها وقوة شاعريتها – شأن تفوُّق شعرها، حتى قيل: لقد كان

(١) ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، تحقيق على محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت: ١٤١٢ه – ١٩٩٢م، ج٧، ص٦١٣ وما بعدها.

موت صخر بن عمرو بن الشريد إعلاناً للعرب عن تاريخ ميلاد شاعرة بني سليم الخنساء، نظراً لغزارة وجودة ما قالت في رثاء أخيها..

يقول ابن قتيبة عن فنها الشعري(١): "مالا شك فيه هو أن من تبعها من شعراء الرثاء، وشواعره اغترفوا جميعهم من بحرها الفياض بفيض العاطفة البشرية".

ومثلما تفوقت الخنساء شاعرة، جاءت وصيتها لبنيها ليلة القادسية شاهدة على عبقريتها الأدبية من خلال هذه الوصية التاريخية التي لا تعد درة على جبين الأمهات فحسب، بل الأمهات والآباء، لفصاحتها وبلاغتها وشخصيتها وثباتها وصبرها على مصابها الجلل الذي صار مضربًا للأمثال..

وفاة الخنساء:

توفيت الخنساء سنة (٢٤ هـ - ٦٤٥م) بعد أن جاورت السبعين عامًا.

مناسبة الوصية:

سبقت الإشارة إلى إسلام الخنساء مع بنيها ووفد من قومها، وأنها قد حسن إسلامها، وقد كان ذلك عام فتح مكة. ولما كانت ليلة موقعة "القادسية" جمعت الخنساء بنيها وقد كانوا أربعة رجال، وجعلت تحدثهم عن شرفهم ونسبهم، ثم عن شرف الإسلام، وحقيقة الدنيا والآخرة، وما أعده الله من الثواب العظيم للمجاهدين والشهداء في سبيل الله لنصرة الحق، وإقامة العدل من أجل خير الإنسان، ولذا شرعت تحثهم على أن يقاتلوا في سبيل الله قتال من يرجو الشهادة ليظفر بالخلود في الحياة الآخرة الخالدة..

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت، ٢٠٢٠م، ص١٩٧.

ولصدقها في قولها، وحسن إسلامها، وعمق إيمانها بلغ قولها من نفوس بنيها ما آمنت به، فقاتلوا وصدقوا، ونالوا الشهادة جميعهم في سبيل الله.

ولما بلغها خبر وفاتهم، قالت:

"**الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته**"(١).

وهكذا استقبلت ثكل الأبناء بثبات نادر صابرة محتسبة بصورة جعلتها مضربًا للمثل السائر. وقد يكمن سر ذلك الصبر والثبات عائدًا إلى الدور المشرف الذي يحسب لاستشهاد بنيها في تحقيق نصر عظيم، وفتح مبين للإسلام، ثم إلى اطمئنانها إلى ما أعده الله للشهداء في الحياة الخالدة...

وهكذا كان تأثرها بالإسلام، حيث لا ثأر في الإسلام، ولا نار لمن استشهد في سبيل الله.

مع الخنساء في وصيتها:

- ابتداء جامع بين التذكير والتقرير والتهيئة:

لم تكن الخنساء حاطبة ليل، إذ تجمع بنيها ليلة "القادسية" لتدفع بهم جملة دفعًا إلى أتون معركة بكل ما تعنيه كلمة معركة من محاذير وهواجس وعواقب على مستوى الأرواح وما يتعلق بها من توابع وتبعات.

وإذا كانت "الخنساء" بشخصيتها الخبيرة قد خبرت من أمر حروب الجاهلية ما خبرته عن ويلاتها بين القبائل العربية، حيث يمكن لها وقومها تقدير حجم خصومهم من القبائل مما يعني أن إقدامهم - على أقل تقدير - إن لم يحقق لهم النصر والظفر، فإن هناك فرصًا للأخذ بالثأر مما قد يجدون فيه بجاهليتهم مندوحة تشفي الصدور ولو قليلًا، وإن كان ذلك لا يأتي بخير، فإن "الخنساء" لم يكن ليغيب عن خاطرها وقلبها أن الحرب هذه المرة أكبر

(١) ينظر: تاريخ الطبري: ج٣، دار المعارف، ص٣٦٦.

بكثير من حرب القبائل، أو حتى الدول، حيث لم يكن ليتوافر لديها – على الأقل – ما يعمل على تطمينها بتفوق قوة الجيش الإسلامي على الطرف الآخر في موازين القتال، إذ يكون النصر ثمناً يشفي ويكفي إذا هي فقدت بنيها أو بعضهم، حيث لا يمكن الأخذ بالثأر كما كان الحال من قَبْلُ، وهي – رغم هذا – تعلم أن المواجهة مع طرف يُعَد أحد أقوى قوتين أو امبراطوريتين في العالم في ذلك الوقت، ولذا فإن موازين القوة غير متكافئة عددًا وعُدةً، وتاريخاً، وواقعًا.

على أن الخنساء – لحسن إسلامها – قد تطورت شخصيتها عنها في الجاهلية تطورًا تاريخيًّا، حيث تتجاوز جاهليتها لتقدم من رحمها الشريف أبطالًا يشاركون في صُنْع التاريخ، إذ يشاركون في تحقيق نصر تاريخيٍّ على الامبراطورية الفارسية في موقعة "القادسية"..

ولذا شرعت في مستهل وصيتها تذكر بنيها بحقيقة الإسلام الذي دانوا به مختارين لله رب العالمين يمثل لهم كل شيء وجودًا كريمًا، وعبادةً حقةً، ودستورًا قويمًا بكل ما تعنية كلمة الإسلام، على نحو ما يتجلى في قولها [١]: "**يا بَني: إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين.**

ثم جعلت تقرر لبنيها من خلال فقه إسلامها الذي لم يكن ليغفل أمر الحياة في كل حال، ولذا فإنه يُبقِي على كل جميل نفيس لدى المعادن النفيسة في دنيا الناس في كل زمان ومكان، على نحو ما قرره رسول الإسلام لكل الناس، إذ يقول [٢]:

"**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام ...**".

(١) تنظر الوصية في الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ج٤، ص١٨٢٨.
(٢) أخرجه مسلم في باب الأرواح جنود مجندة، رقم (٢٦٣٨).

ولذا فإن الخنساء في مقدمة وصيتها جعلت تقرر وتُذكِّر بنيها بأطراف أساسية من خيرية وشرف تلك الحياة الخاصة بها وبنيها قبل الإسلام مؤكِّدة تذكيرها بأقوى الأيمان قائلة(١):

"**والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيَّرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين**".

إن قولها: "**إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة**" ليعني عدم غفلتها عن مسئوليتها عن ثمرة رحمها، تلك الرحم الكريمة الشريفة العفيفة، كما يعني ذلك أيضًا أن أبناءها جميعًا سواء في ذلك، وفي شرف نسبهم لأبيهم الذي تعانق شرف نسله مع شرف أنسابه وأصهاره، وهذا كله يعني أنها تضع ذلك كله في حسبانها مذ كانت شريفة في أهلها، شريفة في بيتها مع زوجها، شريفة في حملهم في رحمها، شريفة في تنشئتهم وتربيتهم، شريفة في وصيتها لهم وإعدادهم ودفعهم للحرب والجهاد في سبيل الله..

وهكذا جاءت المقدمة حاملة لبنيها عدة رسائل من الموصية لبنيها على النحو الآتي:

- رسالة تذكير بحقيقة إسلامهم اختيارًا، وهذا يعني أن ذلك يمثل بالنسبة لهم مسئولية ذات حقوقٍ وواجبات.
- رسالة تطمين من خلال طمأنتهم بشرف أصلهم ونسبهم من خلال ما صنعته لهم أمهم، وهذا يعني تمام الثقة فيما ترسله وتوجههم إليه، ووجوب استجابتهم لذلك.
- رسالة تهيئة، حيث توحي هذه المقدمة وتشير إلى أن أمرًا جللًا هو موضوع ما جمعتهم من أجله، ولا أجلَّ من أن تحدثهم عن الجهاد في

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ج٤، ص١٨٢٨.

سبيل الله، وتوجههم إليه على أسس قويمة ومنطقية صادقة حكيمة، تؤدي إلى تهيئتهم إلى الجهاد تهيئة نفسية في غاية الأهمية.

الوصية تفصل بين حياتين:

إذ كانت مقدمة الوصية قد جاءت تحمل عدة رسائل من الأم الموصية لبنيها، إحداها تذكيرية، وثانيتها تطمينية، وثالثتها للتهيئة النفسية للجهاد في سبيل الله، فإن بداية حديثها عن موضوع وصيتها جاءت تحمل رسالةً جديدةً لكنها تبشيرية مؤكدة غاية التوكيد بكونها يقيناً ووعدًا من الله الحق الذي أعد للمجاهدين في سبيله الثواب الجزيل، والله لا يخلف وعده أبدًا. وهكذا كانت رسالتها التبشيرية لبنيها إذ تقول (١):

"**وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين**".

وحين طفقت الخنساء تدلف إلى صلب وصيتها بادرت بأسلوب إنشائي في صورة أمر قائم على العلم واليقين، نافٍ عن كل مشتقات العلم واليقين من جهل وجاهلية، وشكٍّ وتردُّد، حيث جعلت تذكرهم بأن الدنيا إلى فناء، وأن الآخرة هي دار البقاء. وكأنها تدعوهم إلى الإقرار بأنفسهم، والمفاضلة بين الدارين، ولا ريب في أنه لا يوجد عاقل يُفضِّل دارًا تفنى على دار تبقى خالدة..

ولذا فقد راحت تُذكِّرهم بنداء الله عزَّ وجلَّ وتنبيهه أهل الإيمان إلى أن الرباط والجهاد في سبيله، والصبر والمصابرة على ذلك في إطار تقوى الله تعالى دون بَغْي أو جَوْر، فإن ذلك هو سبيل النصر، على نحو ما قررتْه في الوصية قائلة لبنيها (٢):

"**واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾**(٣).

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ج٤، ص١٨٢٨.

(٢) السابق نفسه.

(٣) سورة آل عمران: آية ٢٠٠.

الوصية تعليمات قيادية (النصر أو الشهادة):

سبقت الإشارة إلى أن الوصية ليست نوعًا من الترف الأدبي، ولذا فإنها قد تُساق في أساليب وتراكيب فاصلة يترتب عليها تطور في الحياة كبير، وتغيُّر في الظروف خطير، حيث بدت الوصية التي وُلدتْ في الليل لم تلبث إلا سويعات لتتحول في الصبح إلى واقع ذائع، حيث غدا الموصَى لهم بأوامر وصائية قوية جلية على بصيرة وتَبصُّر ينطلقون إلى ساح الجهاد لا من أجل الاعتداء، وإنما من أجل تحقيق النصر على الأعداء، على ما صدحت به في سمع ووعي بنيها قائلة [1]:

"**فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت نارًا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة**".

لم تقتصر أوامر الأم لبنيها على مجرد الانطلاق إلى ساح القتال، بل الانطلاق وخوض أتون الحرب، ومجابهة أوارها، واقتحام لظاها، قصدًا إلى متابعة سجالها الذي لا ينتهي إلا بالتغلب على الأعداء، الجنود والقواد تَغلُّبًا يُعلن عن تحقُّق الظفر والكرامة بالخلود في جنان ونعيم مقيم إذا هم نالوا الشهادة..

الوصية وردود الأفعال لدى الأوصياء:

إذا كان الاتصال الشخصي الذي يتم وجهًا لوجه بين الأفراد يُعَد أبسط أنواع الاتصال الذي عرفه الإنسان، فإن هذا الاتصال لا ريب في أنه يرجى أن يكون له ثمار، تلك الثمار التي لا تتحقق في أزهى صورة إلا من خلال مستوى مناسب من الثقافة والتفكير والتوجيه والتلقِّي الذي يعبِّر عن مدى ما

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ج٤، ص١٨٢٨.

أُضيف إلى بناء الذات لدى الإنسان في إطار المجتمع الإسلامي بما يؤهله إلى أن يتبوأ أسمى المنازل في الحياة الدنيا والآخرة مهما كان نوعه، ذكرًا كان أو أنثى..

وقد تجلَّى هذا الاتصال من خلال وصية الخنساء في أسمى ما تكون صورة الاتصال الإنساني بين الأفراد مهما تكن الظروف، بما تمثله، أو تحمله من رسالة، بل رسائل في غاية الأهمية والجلال للإنسان في ذلك الظرف، وفي كل ظرف..

وتبدو عناصر عملية الاتصال من خلال هذه الوصية على النحو الآتي:

- المرسل: وهي الأم الموصية.
- المستقبِل: وهم الأبناء الأوصياء.
- الرسالة: وهي الوصية.
- الوسيلة: وهي ألفاظ، الوصية، وأساليبها، ولغتها، وأفكارها، وشخصية الموصِي.
- الهدف: وهو الغاية التي ترمي إليها الموصية.

ولقد نجحت الخنساء الأم الموصية بما تمتلكه من أرصدة ثرية وقوية ومتنوعة اجتماعيًّا وشخصيًّا، وأدبيًّا وفكريًّا، وإيمانيًّا من خلال وصيتها لأبنائها الرجال في رفع مستوى قدراتهم وطاقاتهم المختلفة إلى أن يكونوا على أقصى درجات المسئولية التي تجعلهم يؤمنون الإيمان الكامل أن اجتهادهم وجهادهم في سبيل الله عاقبته – مهما تكن النتائج – كلها خير..

وهكذا كانت ردود أفعال الأبناء تجاه وصية الأم، حيث باكروا إلى ساح الجهاد ليأخذوا مراكزهم حاملين نصح أمهم، ماضين بعزم وصدق وإيمان إلى أشرف غاية على النحو التالي:

ـ رد فعل الأول:

أنشأ يقول[1]:

"يا إخوتي إن العجوز الناصحةْ قد نصحتنا، إذ دعتنا البارحةْ
مقالة ذات بيان واضحةْ فباكروا الحرب الضروس الكالحةْ
وإنما تَلْقَون عند الصائحةْ من آل ساسان الكلابَ النابحةْ
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحةْ وأنتم بين حياة صالحةْ
أو ميتة تورث غُنْما رابحةْ"

لقد تمثَّل رد فعله في تنبيه إخوته إلى أن وصية أمهم ليست مجرد وصية، وإنما هي نصيحة، والنصيحة لا تكون إلا من ناصح، والنصيحة لا تأتي إلا بخير.

وأيُّ نُصح وخير يكون إن لم يكن من أم ذات بيان لم يدَعْ له وإخوته مجالًا لأي نوع من التخاذل أو التكاسل، إذ هم أمام أمرين لا ثالث لهما: إما النصر، وإمّا الشهادة. والنصر يجعلهم يحيون حياة العز والشرف والكرامة، والشهادة تجعلهم يحيون حياة الخلود..

ولذا شرع ينطلق من خلال رسائل وتعليمات الوصية التي منحته حياة الخلود، حيث نال الشهادة.

ـ رد فعل الابن الثاني:

حمل يردد:

"إن العجوز ذات حزم وجلَدْ والنظر الأوفق والرأي السدَدْ
قد أمرتْنا بالسداد والرشَدْ نصيحة منها وبِرًّا بالولدْ
فباكروا الحرب حماة في العددْ إما لفوز بارد على الكبدْ
أو ميتة تورثكم عز الأبدْ في جنة الفردوس والعيش الرغدْ[2]

(١) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت، ج٦، ص٩٣.
(٢) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت، ج٦، ص٩٣.

وقد تمثَّل رد فعله في تركيزه على نقاط مهمة لدى الأم التي يصدُق فيها أنها أمة، حيث أدرك أن وصيتها له وإخوته نبعت من منابع العزم والحزم، والتثبت والتجلد، وهي امرأة، وهي أم عجوز، فكيف بالأبناء وهم الرجال الأقوياء؟

وهو إذ يدرك أن وصيتها ليست محض نصح وتوجيه يجب أن يؤخذ به فحسْب، بل يدرك أن إجابة وصيتها بما تحمله من رسائل ونصائح فيه من الرشد والبر ما فيه بالأم التي لا ترجو لأبنائها إلا كل خير في الدنيا إذ ينتصرون، وفي الآخرة إذ يستشهدون..

ومثل هذا الابن الراشد البار لا يليق به سوى حياة الشهداء، ولذا فقد نال الشهادة كذلك في سبيل الله..

ـــ رد فعل الابن الثالث:

حمل وهو يقول(١):

والله لا نعصي العجوز حَرْفا ... قد أمرتنا حدبًا وعطفا

نصحًا وبرًّا صادقًا ولطفا ... فبادروا الحرب الضروس زحفا

حتى تَلُفُّوا آل كسرى لفَّا ... أو تكشفوهم عن حماكم كشفا

إنا نرى التقصير منكم ضعفا ... والقتل فيكم نجدة وزلفى

لقد تمثل رده في قوله الذي جاء منذ بدايته مؤكَّدًا بقسم لا حنث فيه لحرف من وصية الأم بما تحمله من رسائل لا يرى فيها إلا نصحًا وصدقًا، ولطفًا وعطفًا، بل لا يرى أيَّ تأويل لوصيتها على غير وجهه إلا ضعفًا، وما كان أبعده وإخوته عن ذلك نجدة في الدنيا، وفي الآخرة زلفى وقربى...!

ولذا فإنه كذلك لا يليق به سوى حياة الشهداء التي ظفر بنوالها في سبيل الله..

(١) السابق نفسه.

ـــ رد فعل الابن الرابع:

حمل وهو يرتجز كذلك قائلًا:

لســـت للخنســـاء ولا للأخـــرم ولا لعمرو ذي السناء الأقـدم

إن لم أَرِد في الجيش جيش الأعجم ماض على الهول خضم خضرم

إمـــا لفـــوز عاجـــل ومغـــنم أو لوفاة في الســـبيل الأكـــرم

وهكذا تمثَّل رده في كونه جاء مُتَوِّجًا قول إخوته بأن انتســـابه لأمـــه الخنساء فيه من الشرف ما فيه، مثلما هو يشرف به في نسبه لوالده وأصـــله الشريف، ولذا فإنه يعلن أنه لا يستحق أن ينال شرف هذا الانتساب إن لـــم يُقْدِم غير مبالٍ بأهوال القتال في سبيل النصر أو الشهادة، تلك التي فاز بهـــا كذلك في سبيل الله..

وبهذه الشهادة في سبيل الله للابن الأخير تكون هذه الوصية التاريخية تُوِّجتْ بأربع شهادات، لتُختَتم أحسن اختتام، وذلك حين بلغ الأم الموصـــية نتيجة وصيتها التي تمثلتْ في فقد بنيها واستشهادهم جميعًـــا، حيـــث قالـــت كلمتها للتاريخ:

"**الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته**" (١).

(١) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت، ج٦، ص٩٣.

الفصـــــــل الثـــــاني
وصيتا "أمامة بنت الحارث" لابنتها و "الخنساء" لبنيها
دراســـة فنيـــة

الفصـــــــل الثـــاني
وصيتا "أمامة بنت الحارث" لابنتها و "الخنساء" لبنيها
دراســـــــة فنيـــة

المبحث الأول:
وصية أمامة دراسة فنية:

أولًا: البناء الفني للوصية:

يبدو البناء الفني في إنشاء الوصايا ملتئمًا من خـــلال ثلاثـــة أجـــزاء متكاملة تمثل العناصر الأساسية للبناء الفني لفن الوصايا تتمثل في مقدمـــة وموضوع وخاتمة.

وعلى هذا يمكن تناول بناء الوصية على هذا النحو:

•المقدمة:

توافر في مقدمة وصية أمامة عناصر عملت على جودة بنائهـــا منـــذ افتتاحيتها من خلال الاشتمال على عدة أمور منها:

١- التنبيه والإثارة:

جاءت مقدمة الوصية تحمل إشارة وتنبيهًا التنبيه إلـــى أهميـــة شـــأن الوصية في حياة الإنسان بصفة عامة، وموضوع الوصية بصفة خاصة، وقد تمثل ذلك من خلال أسلوب النداء الممزوج بصيغة التصغير بغرض التلطف والتدليل الذي يعمل على فتح مغاليق النفس والجنـــان والوجـــدان لاســـتمالة الموصى لها وتهيئتها تهيئة فيها من حسن الاستهلال ما يُعَد "داعية الانشراح ومطية النجاح"(١).

(١) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تقديم وشرح: د. صلاح الدين الهواري، و ا. هدى عودة، ج ١، ط مكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت ١٤١٦ هـــ، ص ٣٦٤.

– وقد تمثَّل هذا في المقدمة منذ الجملة الأولى من خلال قولها:
"**أي بنية: إن الوصية لو تُرِكَتْ لفضلِ أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منك**".

فأسلوب النداء يوحي بالقرب مكانًا ومكانة، فضلًا عما يحمله من تنبيه وإحساس بالمسئولية، وكذا تحمل صيغة التصغير من المعاني ما يشي بصغر الموصى له وحاجتها التي توجب التوجه إليها بالنصح الممزوج بالحنوِّ عليها رجاء الخير لها، وفي هذا إكبار وتقدير أثير..

٢– إقرار الحقائق وتوكيدها:

إقرار الحقائق في الوصايا منذ البداية يولِّد في نفس الموصى له مقادير مهمة من الثقة بالموصِي، وحين يمتزج تقرير الحقائق بالأسلوب المؤكد فإن ذلك يبعث في النفس ألوانًا من الاطمئنان إلى ما يقدَّم إلى الموصى له في صلب الرسالة، وقد تجلَّى ذلك بوضوح من خلال قول أمامة في المقدمة عن الوصية: "**ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل**".

وقولها عن التلازم الطبيعي بين الرجال والنساء[(١)]: "**ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال**".

وصحيح أن حياة الأولاد ذُكُورًا وإناثًا تنهض على قدْر كبير من التخيُّل والتطلع من جهتهم، لكنهم من جهة الآباء والأمهات لا يكادون يقبلون سوى الحقيقة المؤكدة والمقررة..

٣– الإيجاز:

صدق من قال عن الإيجاز بصفة عامة: "البلاغة الإيجاز" وذلك لما فيه من اختصار، وبلوغ المراد من أقصر طريق، دون إخلال أو إملال، ويكون ذلك أنسب ما يكون إلى فن الوصية بصفة عامة من مقدمتها إلى خاتمتها، نفيًا لكثير من فضول حديث لا يجدي، وإطناب لا يغني.

(١) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

وإذا كان هذا هو الشأن الأنسب الذي تستدعيه الوصية، فإن مقدمتها تكون أكثر استدعاء للإيجاز، وهو ما تحقق في هذه الوصية بصورة مثالية...

•الموضوع:

يُعَد الموضوع في بناء الوصية من الأهمية بمكان، إذ إنه الأساس الذي يقوم عليه البناء بكل ما يحمله من مضامين وأفكار يرمي الموصِي أن يقدمها للموصى له..

١- الوحدة الموضوعية:

تحلَّى موضوع الوصية بصفة عامة بوحدة موضوعية حافظت عليها الموصِية من بدايتها إلى نهايتها متسلحة في ذلك بشخصيتها ذات الميراث الثري الذي منحها ألوانًا من المنطق والفكر المنظم، والحكمة واللغة البليغة الأثيرة المؤثرة غاية التأثير..

٢- التسلسل الفكري والمنطقي:

أشارت الموصية في ختام المقدمة إلى لزومية العلاقة بين الرجال والنساء، ثم أعلنت في بداية الموضوع عن بداية تحقُّق هذه العلاقة بخروج ابنتها من بيت أبيها الذي لم تكن تعرفه، كما أنها لم تعش في بيته من قبل، وذلك على حد قولها (١):

"**أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه**".

وفي سبيل تحقُّق هذه العلاقة الطبيعية فإن الأم الموصِية ترجو أن تُبنَى خير بناء من خلال مقدمات وممارسات تُفضِي إلى نتائج، وكلما تحلَّت هذه العلاقة بمعطيات من المنطق، ومقادير من النظام ظفرت بأكبر درجات من النجاح..

(١) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

ولذا فإنها تُذكِّرها مرة بواقعية العلاقة الجديدة قائلة: "**فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا**".

ومرة ثانية تقرر لها بحكمة متناهية من خلال الإنشاء الطلبي المتضمن معنى الشرط أنه لا استرقاق في الزواج، وإنما هو مبادلة رقة برقة، وطاعة جميلة نبيلة بطاعة جميلة نبيلة ترفع الزوجين إلى قمة الانسجام في حياتهما الإنسانية على نحو ما يتمثل في قولها: "**فكوني له أَمَةً، يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا**".

ومرة ثالثة تذكر الأم لابنتها أن انسجامها في حياتها الجديدة له مقتضيات، وأن حفظ هذه المقتضيات والحفاظ عليها له نتائج محمودة سيرًا وسيرة، ثم لا تكتفي الأم بإجمال وصاياها الآمرة المغلفة بغلاف الشرط، إذ تجنح إلى التفصيل والتعليل، والتنسيق والترتيب، على نحو ما يتجلى في قولها (١):

"**يا بنية: احملي عنى خصالاً عَشْرًا، تكن لك ذخرًا وذكْرًا.**

ـ الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.

ـ والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه؛

فلا تقع عينُه منكِ على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود.

ـ والتعهد لوقت طعامه، والْهُدُوُّ عنه عند منامه؛

فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مغضبة.

ـ والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله".

انتقلت أمامة بقولها لابنتها: "**فاحملي عني خصالًا عشرًا ...**"، نقلة موضوعية وفنية؛ حيث تجاوزت مرحلة الافتتاح والتهيئة إلى مرحلة المسئولية والواجبات من خلال أساليب الأمر بدلالاتها، غير أنها ليست

(١) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

مجرد أوامر تُفرَض فرضًا، وإنما تعرَض عرضًا مصبوغًا بصبغة شرطية منطقية حكيمة من أم واعية أمينة..

فبعد ما أجملت أمامة لابنتها تلك الخصال التي يجب أن تراعي مقتضياتها شرعت في تفصيل تلك الخصال بادئة بأولاها أهمية في بناء هذه العلاقة الاجتماعية الجديدة الممثلة في تحليها بالمصاحبة الأثيرة، والمعاشرة الجميلة، ثم تثنِّي الأم بذكر ما يأتي في درجة شديدة الأهمية كذلك من الخصال التي تُدرَك بالحواس، وذلك لسرعة ملاحظة الإنسان لها وشدة التأثر بها من خلال ما يدرك بحاستي البصر والشم، وهي لا تكتفي بالتنبيه، إذ تدلها على قيمة الكحل جمالًا، والماء روح الحياة وريحانها، ثم تُثلِّث الأم بالجمع بين خصلتين في غاية الأهمية لا غنى لحياة الإنسان عنهما، وضرورة توافرهما وقت الحاجة إليهما: الطعام فهو سبيل الطاقة، والمنام فهو سبيل الراحة، وهي كذلك لا تكتفي بذكر الخصلة، وما تقدمه من نصيحة من خلالها، بل تردف بذكر التعليل الذي يجلِّي الفكرة، ويوضح السبب في التئام بديع بين كل خصلة وما يقاربها ويناسبها ماديًّا ومعنويًّا.

٣- توظيف الحكمة والمثل:

الحكمة من بين فنون الأدب التي تتحلى بدقة اللغة، وأسباب البلاغة بإيجاز العبارة وثراء المعنى، وسلامة التفكير، وسداد الرأي، وخبرة منشئها وقوة تأثير شخصيته في المتلقي فكرًا ووجدانًا، ولذا يكون للحكمة من التأثير ما يعمل على ثراء النص الأدبي وارتفاع مستواه الفني، إذا ما أحسن المبدع توظيفها في إبداعه استلهامًا أو إلهامًا.

وإذا كان الأدب صناعة، فإنه "كلما أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال الشائع استعمالها انقادت إليه معانيها، وسيقت إليه ألفاظها، في

وقت الحاجة إلى نظائرها من الوقائع والأحوال، فأودعها في مكانها واستشهد بها في موضعها"[١].

وقد زخرت وصية أمامة بعدد من الحكم الأثيرة التي صار بعضها لصدقها وذيوعها أمثالًا سائرة، وقد وقعت من الوصية في مواقعها المناسبة فكان لها من قوة الأسر وشدة التأثير ما لها..

ومن أمثلة ذلك قول أمامة في المقدمة عن الوصية إنها: "**تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل**".

وقولها عن تلازم العلاقة الإنسانية بين الرجال والنساء: "**النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال**".

وقولها عن انسجام تلك العلاقة: "**فكوني له أَمَةً، يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا**".

وقولها: "**فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مغضبة**".

(١) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ١، ص ٣٥٣، دار الكتب السلطانية ١٩١٦م.

•الخـــاتـــــمة:

تُعَد الخاتمة في بناء الوصية كذلك من الأهمية بمكان، لأنها آخر مـــا يبقى من الوصية في الأسماع، وألصق ما تكون بذاكرة الموصَى له، ويطلق عليها النقاد القدامى (الانتهاء) شأن خاتمة كل عمل، وذكروا من لوازمه "أن يكون محكمًا، لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه"(١).

وغالبًا ما يدرك الموصِي بالخاتمة مراده وما يقصد إليه من وصيته، وهو ما تمثل في ختام وصية "أمامة" بصورة دقيقة لما اشتملت عليه من دقة تعبيرية عن هدفها من وصيتها لابنتها في إيجاز بليغ يتجاوز جمال العبـــارة إلى جلال الغاية التي تمثلت خير تمثيل في قول أمامة لابنتها (٢):

"**وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظامًا؛ يكن أشدَّ ما يكون إكرامًا.**

وأشد ما تكونين له موافقة؛ يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.

واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تُحبين حتى تُؤْثري رضـــاه علـــى رضـــاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهت. والله يَخير لك".

إن الإكرام الذي ترجوه الأم لابنتها شيء جميل، لكـــن دوام العشـــرة والمرافقة شيء جليل، وهو ما اشتملت عليه العبارة الأولى في الخاتمة، في حين تحلَّت العبارة الثانية بما هو جامع للجمال والجلال، ألا وهـــو الإيثـــار الذي جلَّلتْه الأم في ختام وصيتها بخير ختام بالدعاء لابنتها **أن يخير لها الله.**

لقد جاءت خاتمة الوصية نموذجية في إيجازها، ودقة لغتها وأناقتهـــا، وقوة شخصية الموصية وحكمتها، وسداد رأيها، وبُعد رؤيتها، فـــي أمانـــة وحميمية صادقة واعدة..

ثانيًا: اللغة والأساليب:

تعتمد الوصايا في إنشائها بصفة عامة على ثقافة الموصِي، ومدى ما لديه من ذخيرة لغوية وفكرية من خلال خبراته وقدراته ومهاراته وتمكُّنه من

---

(١) ابن رشيق: العمدة، ج ١، ص ٣٥٥.

(٢) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

لغته على مستوى المفردات والأساليب، وحسن توظيفها كي تعينه على إيصال فكرته، وبلوغ مراده، وتحقيق هدفه..

•الألفاظ والمعاني:

أول ما يلفت النظر في وصية "أمامة" من خلال مفرداتها أنها جاءت فصيحة واضحة منتقاة، بعيدة عن الحوشية على ما يغلب عليها من جزالة مناسبة بيئتها وعصرها، وهي كذلك – رغم جزالتها –تتمتع بطواعية جعلتها تتجاوز حدود بيئتها وعصرها إلى عصرنا، وإلى ما شاء الله، إذ تستوعبها كل الفئات بيُسْرٍ وإقبال، دون أي نفور أو إملال، على حد قول "أبي هلال العسكري"(١): "وأما الجزل والمختار من الكلام، فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراته".

– ومن أمثلة المفردات الجزلة: (وكر، قرين، خلَّفت، التعهد، ملهبة، مغضبة، أوغرت، غدره، مهتمة.

وهذه الألفاظ على ما تتسم به من جزالة، فإنها لا تبدو متوعرة غامضة، إذ هي مع غيرها من المفردات واضحة في معانيها، مناسبة لموضوع الوصية في مراميها منذ المقدمة وحتى الخاتمة.

وهكذا تبدو مفردة: (بنية) التي كانت الوصية من أجلها، لنصحها وتوجيهها.

والمفردتان: (تذكرة، ومعونة) مناسبتان لبيان مدى أهمية الوصية.

والمفردات: (امرأة، زوج، النساء، الرجال) مناسبة لموضوع الوصية وهو الزواج وتلازم العلاقة بين نوعَي الإنسان بذلك.

كما أن من المفردات ما جاء محمَّلًا بإيحاءات ذات أبعاد ودلالات مهمة، على نحو ما نجد في المفردات الآتية:

(١) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق: محمد علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٧١م، ص١٦١.

مفردة: (الجو) تشير إلى أبعاد تشمل آفاق نشأتها بما فيها من عبق وهواء وأضواء، وطوابع ومكتسبات بين أفراد أسرتها وأطراف المكان.

ومفردة: (العش) توحي بالألفة والطمأنينة في العيش والإقامة.

في حين توحي مفردة: (الوكر) بالقلق والارتياب وعدم الأنس بالمكان.

ومفردة: (ذُخرًا) توحي بالقيمة وامتداد العطاء، والمرجعية النافعة.

ومفردة: (الخشوع) توحي بأهمية خفض الجناح والتودد إلى الزوج والتحنان الذي يؤدي إلى التآلف بين الزوجين والترافق.

ومفردة (التعهد) توحي بضرورة الاهتمام والرعاية والمتابعة من الزوجة بصور تحقق كل مصلحة، وتنفي كل مفسدة.

وهكذا عُنيتْ "أمامة" في وصيتها بانتخاب ألفاظها، ودقة معانيها، بما يتناسب وحال الموصَى لها، وما يتعلق بحياتها الجديدة التي تحتاج إلى حسن تخير وتوفيق، على نحو ما جلَّتْ به الموصية –رغم جاهليتها –من مفردات عظيمة وقيمة مثل: (الله) و(يخير).

•الأساليب وتنوعها:

للأساليب في فن الوصية على تنوعها من الأهمية وقوة التأثير في الموصَى له ما يقتضي من الموصِي أن يراعي في صياغة الأسلوب ما يناسب عمله الوصائي من بدايته إلى نهايته، "حيث يتخذه الأديب وسيلة للإقناع والتأثير"(١).

وقد زخرت وصية "أمامة" بألوان من الأساليب الخبرية والإنشائية وغيرها من الأساليب، على أنه قد يبدو للوهلة الأولى من قراءة الوصية هيمنة الأساليب الخبرية ذات الطبيعة التقريرية التي قد تناسب ما تريد أن تثبته الموصية وتُقرُّه في وجدان ابنتها، رغم ما ترمي إليه من غرض أصيل

(١) أحمد الشايب: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب البلاغية، مكتبة النهضة المصرية، ط ٨، ١٩٩١م، ص ٤١.

وهو تعليم ابنتها ونصحها وتوجيهها بإنشاء الأساليب المناسبة لذلك من بداية الوصية إلى الخاتمة.

- ومن أمثلة الأساليب الخبرية:

(إن الوصية ....، ولكنها تذكرة للغافل ....، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ ....، إنك فارقت الجو ....، وخلَّفت العش....، ....).

وقد تعانقت هذه الأساليب الخبرية التقريرية مع أساليب أخرى ذات صبغة توكيدية سبقت الإشارة إلى بعضها، ويضاف إلى ذلك ما كان عن طريق:

النفي والاستثناء مثل: (ولا يشم منك إلا أطيب ريح).

أو عن طريق التقديم مثل: (النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال) أو عن طريق أساليب الشرط التي تضيف إلى التقرير دقة وإحكامًا واطمئنانًا إلى سلامة نتائج تلك الأخبار.

على أن ما بدا من شبه هيمنة للأساليب الخبرية لم يكن ليؤثر على وجود الأساليب الإنشائية بدلالاتها المتنوعة التي تناسب طبيعة موضوع الوصية الذي استهلته الموصية منذ المقدمة بأسلوب النداء لما يحمله من دلالات تنبيهية، وتكراره للتوكيد ومزيد التنبيه إلى أهمية الموضوع إجمالًا وتفصيلًا.

ولما كان موضوع الوصية بحاجة إلى تعليم الموصَى لها ونُصْحها وتوجيهها، فقد استخدمت الموصِية أسلوب الأمر مثل: "**احملي عني خصالًا..، وكوني له أَمة يكن لك عبدًا، واتقي من ذلك الفرح.. إن كان ترحًا، وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا....، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري ....**".

واستخدامها أسلوب الأمر بدلالاته التوجيهية الآمرة لم يجعلها تغفل كذلك عن استخدام أسلوب النهي بدلالاته التحذيرية والنهي عن فعل ما يوجب اللوم، أو العقاب، أو يؤدي إلى الضرر مثل: "**لا تقع عينه منك على**

قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، ولا تفشي له سـرًّا، ولا تعصـي لـه أمرًا"(١).

ويضاف إلى ما سبق استخدامها عددًا غير قليل من الأساليب الخبرية في لفظها، لكنها إنشائية في معانيها، على نحو ما تمثَّل في الخصال العشـر التي جاءت في لفظها على صورة الأخبار إلا أنها جميعًا تحمل معنى الأمر للتعليم والنصح، فضلًا عما خُتِمت به الوصية من أسلوب خبري في لفظـه إنشائي في معناه، وغرضه الدعاء في قولها: "**والله يخير لك**".

ثالثًا: الحقيقة والمجاز والتصوير الأدبي

غلب أسلوب الحقيقة على وصية "أمامة" وذلك لارتباطهـا بحقـائق واقعية، سواء أكانت متعلقة بالماضي الذي لا يمكن للأم أن تقـوم بتزييفـه لابنتها، أو كانت الحقائق تتعلق بالحاضر والمستقبل اللذين لا يمكن بناؤهما للابنة في حياتها الجديدة على الخيال والأوهام.

– ومن أمثلة الأسلوب الحقيقي في الوصية:

"**النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال**".

"**إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ ....**".

الخصال العشر التي نصحت الموصية ابنتها بها لا تتحقق على سبيل المجاز أو الخيال، وإنما تتحقق بالممارسة الحقيقية الجميلة والصادقة الأمينة مثل:

"**الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة .... إلخ**".

والأسلوب كما هو واضح لا مجال فيه للمجاز، إذ إن الغـرض منـذ البداية هو بيان حقيقة الوجود الإنساني بنوعيه: الرجال والنسـاء، وتقريـر تلازم العلاقة بينهما بالزواج الذي هو سبيل التكامل والتناسـل لاسـتمرار الحياة وإعمارها كما أراد الخالق لكل خَلْق.

(١) تنظر الوصية في جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٤٥، ١٤٦.

وقد عولت الموصية كذلك على الأسلوب الحقيقي لغرض تقرير الموصَى لها بواقعية انتهاء مرحلة الإقامة في بيت أسرتها قبل الزواج، لتبدأ مرحلة جديدة من الحياة في بيت زوجها..

كما شكلت الأساليب الحقيقية قوام الوصايا التي اشتملت عليها وصية أمامة لابنتها تربية وتعليمًا وترسيمًا لملامح حياتها الجديدة كي تحياها خير حياة..

على أنه ليس معنى ذلك أن الوصية تخلو تمامًا من المجاز، إذ هو موجود بالصورة التي تخدم الحقيقة، وذلك لقدرته على إيصال ما لا يمكن أن يُكتفَى فيه بالحقيقة المجردة لإيصاله للموصَى له والمتلقِّي كذلك.

المجاز المرسل:

- وقد جاء المجاز مرسلًا في مثل قولها: "**التعهد لموقع عينه**" و"**أَوْغَرْتِ صدره**" وعلاقة الأول الجزئية، حيث أطلقت عينًا وأرادت الاثنتين، وإنما كان ذلك لأن رؤية العين الواحدة ليست كالاثنتين، ولذا أرادت لها ألَّا ترى عين الزوج في الزوجة أي رؤية غير جميلة.

وعلاقة الثاني المحلية، حيث أطلقت الصدر وأرادت القلب، إذ هو المُعوَّل عليه لصلاح الأمر كله أو فساده.

الاستعارة:

- وقد جاء المجاز استعارة متقيدة بعلاقة المشابهة، سواء كانت تصريحية في مثل قولها: "**خَلَّفْتِ العُشَّ ....، إلى وَكْر ....**".

فالاستعارتان تعبران عن طبيعة الحياة في كلتا البيئتين والمرحلتين المتباينتين من حياة الابنة، كما توحيان بأبعاد مكثفة لكل حياة.

الكناية:

إذا كان من المعروف بلاغيًا أن الحقيقة اللغوية تعني "استعمال اللفظ فيما وضع له"، وكان المجاز اللغوي يعني "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة، وقرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي" فإن الكناية – على رأي جمهور البلاغيين – تُعَد واسطة بين الحقيقة والمجاز كان لها حضور أثير

في الوصية بما أضفَتْه من إثارة ورونق وإقناع، إذ إن "وجودها أكثر تأكيدًا، وأعظم بلاغة في الدعوى من أن يجيء بها الأديب فيثبتها هكذا ساذجًا غفلًا"(١).

وذلك كما في قولها: "**والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه ....**".

وقولها: "**والتعهد لوقت طعامه، والْهُدُوُّ عنه عند منامه ....**".

ففي الأولى كناية عن العناية بجمال المظهر، وطيب الرائحة.

وفي الثانية كناية عن الاهتمام بطعامه، والقيام على راحته واطمئنانه.

وسر جمال الكناية يتمثل في استدعاء الذهن ليعمل فكره فيما يتلقاه بحيوية ومنطق ممتع ومقنع.

التصوير الأدبي:

إذا كانت الأساليب السابقة مجازية أو كنائية قد قدَّمت لنا بعض الصور الأدبية المثيرة، فإن من الصور ما قد تصنعه الحقيقة من خلال أسلوب التشبيه، ولا سيما إذا كان كلا طرفيه يمثل حقيقة مادية، كما في مثل قولها: "**كوني له أمة، يكن لك عبدًا**".

أو كان طرفا التشبيه أحدهما يمثل حقيقة معنوية مشبهًا، والآخر يمثل حقيقة مادية مشبهًا به، كما في مثل قولها: "**حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة....**".

ففي الأول جاءت الصورة التشبيهية رغم اعتمادها على الحقيقة في غاية البلاغة والتأثير لما اشتملت عليه من إيجاز وتقابل وانسجام وتكامُل..

وفي الثانية جاءت الصورة كذلك مثيرة ومؤثرة من خلال التشبيه البليغ لإيجازه، وتصوير الجوع وحرارته وهو مُدرَك باطني بشيء ملتهب

(١) د. بدوي طبانة: علم البيان، دراسة تحليلية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م، ص ٢٠٦.

ذي إيلامٍ ماديٍّ شديد التأثير، على حد قول ابن الأثير عن فن التشبيه: "إذ يجمع صفات ثلاثة هي: المبالغة، والبيان، والإيجاز"(١).

لقد تجلَّى من خلال ما تم تناوله مدى أهمية الصورة الأدبية في نسيج الوصية بوصفها فنًّا أدبيًّا، وذلك لما يمكن استثماره من خلال ما تملكه الصورة من طاقات ثرية، ولما لها من تأثير مهم في العمل الأدبي بما تمنحه من حيوية وثراء من جانب، وبتأثيرها في المتلقي من جانب آخر، حيث "تلفت انتباهه، وتحرك ذهنه ووجدانه وحواسه وقدرته على تذوُّق النص ليصل إلى الشعور بجمال الصورة"(٢).

وقد تحلَّت تلك الصور بكونها صورًا جزئيةً يسيرةً تعبِّر عن قدرة منشئة الوصية، ونظرتها إلى الأمور، وتعبيرها عن طبيعة بيئتها في تلك الحياة وذلك العصر الذي يتسم – في نظر كثيرين من الدارسين والمشتغلين بالأدب ونقده –بالجزئية، والسطحية، وضيق الأفق..

على أنه من تلك الصور الجزئية ما ترتدي – لثرائها الإبحائيِّ المكثف – رداء الصور الممتدة التي لا تنحسر رؤيتها التصويرية في مجرد لفظة أو لمحة، على نحو ما كان في تصوير الموصية لحياة ابنتها قبل الزواج قائلة: "**إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ**".

فقد عبَّرت الصورة السابقة عن مرحلة عمرية كاملة من حياة ابنتها في بيت أسرتها قبل زواجها، كما عبرت الصورة كذلك عن تدرج تلك الحياة منذ بداية الميلاد، ومرورًا بكل سنوات النشأة حتى صارت عروسًا حانت ليلة خروجها وزفافها إلى جو وحياة جديدة تمتد في بيت زوجها من خلال

(١) ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: الشيخ كامل محمد عويضة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م ج ١، ص ٣٨٨.

(٢) د. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، ط ٣، ١٩٩٢م، بيروت، لبنان، ص ٣٢٣.

الصورة التالية كذلك: "**إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا**".

لقد جاءت الصورة معبرة عن تلك الحياة بصورة ممتدة تشتمل على ممارسات عبرت عن بيئتها من خلال تلك الخصال التي التأم من خلالها بناء الوصية إلى نهايته.

رابعًا: التكوين البديعي:

للأصباغ البديعية حضور ذو مقادير إيقاعية أثيرة في لغة الوصية وبنائها، حيث شكَّلت تلك الأصباغ تموُّجًا موسيقيًّا وتنغيميًّا مشبَّعًا بالعواطف الجياشة، حيث تطرب له الأسماع، وتأنس به النفوس، إذ إن "لكل عاطفة أو معنى نغمة خاصة في الموسيقى والغناء، وهي أَلْيَق به، وأقدر على تمييزه، لأنها صوته الطبيعي، وصورته الحسية الدقيقة"(١).

وقد تنوعت الأصباغ البديعية التي تحلَّت بها وصية "أمامة" من خلال تكوين بديعي متنوع ومنسجم في خصائصه الفنية مع تدفُّق في المعاني، وتسلسل في الأفكار، وطواعية في التعبير، ما بين سجع أو جناس، أو حسن تقسيم وازدواج، أو حسن تعليل واحتراس، أو رَدِّ عجُز، أو طباق..

السجع:

يعد السجع من أبرز الألوان البديعية، وأكثرها شيوعًا في الوصية، حيث لا تكاد تخلو منه فقرة مكونة من جملتين أو ثلاث إلا تحقَّق فيها "تواطؤ الفواصل في الكلام.. على حرف واحد"(٢).

- ومن أمثلته في مقدمة الوصية: "**ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل**".

(١) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، القاهرة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م، ص٣٢٢.

(٢) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تعليق د. محمد خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ج٢، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٧٥م، ص٥٤٧.

وقولها: "**إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ**".

- ومن أمثلته في ثنايا الوصية: "**احملي عنى خصالاً عَشْرًا، تكن لك ذخرًا وذكْرًا**".

وقولها: "**الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة**".

وقولها: "**والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه**".

- ومن أمثلته في ختام الوصية: "**تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهت. والله يَخير لك**".

ورغم شيوع السجع في الوصية إلا أنه على ما يبدو من خلال الأمثلة السابقة وغيرها لا يكاد يشعر المتلقي بتكلُّفه، حيث تحقق بين جُمل وعبارات، ألفاظها لها طلاوة، لكنها جادة، سهلة لكنها ليست رَثَّة ولا غَثة. وقد تواءم فيها اللفظ مع المعنى على الحد المأمول "أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعًا للفظ، وإلا كان كظاهر مُموَّه على باطن مُشوَّه"(١).

وقد عمل تنويع الأسجاع في الوصية دون التقيد بحرف واحد أو حرفين على الابتعاد عن التكلف، والتخلص من الرتابة التي قد تؤدِّى إلى شيء من الملل، كما أن قصر الجمل، ومجيئها على نحو متتابع قد عمل على الاحتفاظ بدور الإيقاع التنغيمي دون تلاشٍ لأثره البديعي.

الطباق:

- من أمثلة الطباق في الوصية قول أمامة: "**النساء للرجال خُلِقْنَ**" و"**كوني له أَمَةً، يَكُنْ لكِ عبدًا**".

وقولها: "**لم تأمني غدره**" و"**اتقي الفرح إن كان تَرِحًا**" و"**أحببتِ وكرهت**".

(١) د. عبد العزيز عتيق: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٧٤م، ص٢١٧.

جاء استخدام الطباق لدى الموصية ينم عن حذاقة وعفوية تنأى عن مجرد الاستعانة به أسلوبًا قائمًا على تضاد الألفاظ وما يتولد عن مطابقتها من جرس موسيقي، وإنما هو استخدام يكشف عن قدرة لغوية في التعبير عن المعاني بصورة "تتعدى إلى إظهار الأبعاد النفسية المتوترة وتصويرها في أدق حالاتها، في الصورة المبنية على الحركة القائمة بين المتناقضات"(١).

وهو ما تمثل في المثالين الأولين، حيث جاء الجمع بين: (أمة، وعبدًا) لطيفًا لا يدل على تضادهما، بل توافقهما وتكاملهما وانسجامهما في كل حال.

في حين جاء الطباق في المثال الثالث عجيبًا بين الفعل ومفعوله في قولها: "**لم تأمني غدره**"، لما تحقق من تطويع الفعل المضاد في المعنى لمفعوله تحصيلًا لمعنى لا يتحقق إلا عن طريق هذا التضاد.

وفي المثال الرابع يبدو الطباق بين كلمتي (الفرح، الترح) بليغًا عميم الأثر، من خلال ما يتولد عنه من توجيه الموصَى لها بمراعاة كل أحوالها مع زوجها بما يقتضيه كل حال.

وفي المثال الأخير جاء الطباق بين "**أحببتِ وكرهت**"، جامعًا واسعًا كل رغبات الزوجة في كل حال من الرضا والغضب، والحب والكُرْه، إذ يكون الإيثار هو السبيل لبلوغ أسمى الغايات.

الجنـــاس:

الجناس من الأصباغ البديعية الأثيرة التي لا تتحقق في أيِّ عمل أدبي بصورة ذات دور أثير بمجرد إيراد "كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها ..."(٢).

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٩هـ، ص١٠٨.

(٢) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص ٣٣٠.

وإنما هو يتحقق خير تحقُّق من خلال ما يمنحه للإيقاع من انسجام صوتي بديع، إذ "تُرسَل المعاني على سجيتها لتكتسي من الألفاظ ما يزينها حتى لا يكون التكلف"(١).

وهو ما تمثَّل بصورة جيدة في وصية "أمامة" في قولها:

"**ذُخرًا وذكرًا/ ماله وعياله/ صدره وغدره/ فرحًا وترحًا/ التقصير والتكدير/ موافقة ومرافقة**".

وقولها: "**أحسن الحُسن/ وأطيب الطيب**".

لم تتقيد الموصية في تجنيسها بكونه تامًّا، حيث جاء ناقصًا تارة كما في النماذج الأولى، واشتقاقيًّا تارة أخرى كما في النموذجين الأخيرين، ولذا يُعَد ذلك أدعى للابتعاد عن التكلف، حيث أدَّى دوره البديعي خير أداء، بحُسن وقْعِه وموقعه الذي حلَّ فيه بنسق عفوي.

الازدواج وحسن التعليل:

يعد اللونان البديعيان السابقان من أبرز الألوان البديعية كذلك وأكثرها شيوعًا في وصية "أمامة" حيث جاءت معظم جُملها مزدوجة متوافقة في هيئتها وإيقاعها الموسيقي بصورة تجعل المتلقي يوقن أنه أمام شخصية ذات قريحة وعقلية متوازنة في فكرها، مقنعة وممتعة بمنطقها كذلك من خلال تعانق كثير من جملها المزدوجة بجمل أخرى تُحسِن فيها التعليل بنوع من الطرافة الآسرة.

- ومن أمثلة الازدواج دون تعليل قولها: "**إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه**".

(١) السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٩٩م، ص ٣٢٥.

- ومن أمثلة الازدواج مردوفًا بحسن التعليل الذي جاء كذلك مزدوجًا قولها: "**والتعهد لوقت طعامه، والْهُدُوُّ عنه عند منامه**".

وقولها: **فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مغضبة**".

وعلى الجملة جاءت وصية "أمامة" قطعة أدبية بديعة في بنائها الفني بصفة عامة، وتكوينها البديعي بصفة خاصة من خلال ما زخرت به من أصباغ وألوان بديعية سلف ذكرها، وغيرها مما كان له دور أثير كذلك مثل:

- رد العجز على الصدر في قول الموصية: "**ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال**".
- والاحتراس في قولها: "**والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله**".

وفي ذلك من التوجيه إلى مزيد احترام الزوجة لزوجها، وما يرتبط به من حشم وخدم، وكذا عياله من قبل أن يُولَدوا، وذلك بالتهيُّؤ لرعايتهم أفضل رعاية ما يدل على سعة أفق الموصية: أُمًّا هادية بانية تستشرف مستقبل ابنتها بحكمة ووعي، وأمانة ومسئولية، وأدب رفيع خالد.

المبحث الثاني:
وصية الخنساء: دراسة فنية:

أولًا: البناء الفني:

تبدو الوصية بصفة عامة محكمة في بنائها، من خلال وحدة موضوعها، وتلاحم عناصرها، ومتانة نسجها، لا تكاد تشعر فيها بأي اختلال، فضلًا عن سُموِّ فكرتها الأساسية، وترابط أفكارها الفرعية بصورة يمكن تفصيل عناصر بنائها الفني على النحو الآتي:

•المقدمة:

إذا كان الخطاب يُعرَف – كما يقال – من عنوانه، وإذا كانت هذه الوصية تُعَد – كما سبقت الإشارة – تعد وصيةً تاريخيةً، فإن مقدمتها كذلك تعد مقدمة نموذجية؛ وذلك لتحقُّق عدة اعتبارات فيها على النحو الآتي:

١– حسن استهلالها:

وذلك باستخدام أسلوب النداء: "**يا بَنِيّ ...**" بما يحمله من دلالات تنبيهية وتقديرية برفعة وسمو مكانة المنادَى (الأبناء الموصَى لهم) لدى المنادِي (الأم الموصية) من خلال أداة النداء (يا) وعدم إغفال شأن البنوة حتى وإن كان ممثلوها رجالًا أقوياء، وعدم غياب شأن الأمومة حتى وإن صارت ممثلتها عجوزًا واهنة، فضلًا عما في ذلك من استمالة ذات تأثير إيجابي مهم من بداية الوصية التي تتناول موضوعًا في غاية الأهمية..

٢– إقرار الحقائق وتوكيدها:

وقد تحقق ذلك من خلال الأسلوب الخبري بما يفيده من تقرير موثَّق بألوان من التوكيد الممثل في القسم، وإن، واللام، وقد، والجملة الاسمية بدلالاتها الثبوتية، والفعل الماضي بدلالاته التحققية، ومثل هذه الأمور تحمل إلى نفوس الموصَى لهم رسائل تطمينية تجاه ما تقرره الموصية، وتوصيهم به من جانب، وأخرى تذكيرية وتحفيزية تجاه أصلهم الشريف التليد، ونسبهم الإسلامي العظيم الجديد وما يجب عليهم أن يبادروا إليه عَمَلًا بما توجههم وتدفعهم إليه أمهم بوصيتها على نحو ما يتمثل في المقدمة:

"إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين.
ووالله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيَّرت نسبكم.
وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين"(١).

٣- الإيجاز:

إذا كان خير الكلام ما قلَّ ودلَّ، فإن هذا يُعَد أنسب وَصْف تحلَّت بـه مقدمة هذه الوصية، التي جاءت موجزة في لفظها، بليغة في لغتها، مشـتملة على العديد من المعاني الشريفة، والمسلمات الصادقة، والأسـاليب المثيـرة والمحفزة الدافعة، النابعة من شخصية واعية وواثقة..

•الموضوع:

عالجت الخنساء موضوع وصيتها بصورة ذكية، حيث قامت بنسـجه في غاية الإيجاز والتركيز؛ وذلك لإيمانها بأن الحديث عن الموضوع لـيس أهم من الموضوع نفسه.

ولذا آثرت ألَّا تطنب في وصيتها على بنيها بالنصـيحة مهمـا كـان الخطب جَلَلًا، حتى لا يكون الإطناب مدعاة إلى الملل، ومبعثًا على الكلـل، ولاسيما أنها تخاطب أهل إيمان وفطنة، وأهل مثابرة وهجرة في حال الفاقة والانحسار، فما بالهم وقد غَدَوا مع إسلامهم في عزة وانتشار، إذ ينصر الله دينه وأهله انتصارًا تلو انتصار..

وقد اتسم بناء وصية الخنساء من خلال موضوعها بسمات بارزة على النحو الآتي:

١- الوحدة الموضوعية:

يعد الإيجاز سمة عامة في بناء الوصية، ولذا فقد أدى إلـى تمتُّعهـا بوحدة موضوعية قوية، حيث لخصتْ الموصِية موضوعها في أنه (الجهـاد

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ج٤، ص١٨٢٨.

في سبيل الله، وثوابه العظيم) فإما نصر وظفر، وإمّا شهادة ثوابها حياة خالدة في الجنة ونعيم مقيم، وهكذا أوجزت الخنساء الأم الفذة وصيتها التي قد لا يكون لها مثيل في التاريخ قائلة لبنيها(١): "**واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾**(٢).

فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين.

وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت نارًا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة".

٢- التسلسل الفكري:

في سبيل معالجة موضوع الوصية طفقت الأم تُذكِّر بنيها بداية بحقيقة الحياة الدنيا وحقيقة الحياة الآخرة: دنيا فانية بحرب أو بغير حرب، ولذا فليس فيها خلود. وآخرة باقية، ولذا فهي حياة الخلود.

والموصية كذلك في سبيل تلك المعالجة لم تكن لتتعلق بذاتية فردية أو قَبَلية، وإنما كان تعلُّقها بقضية الإيمان في مواجهة أضداده، إذ إن الإيمان بحقيقته السامية، وعناصره القوية، وغاياته الشريفة من أجل الإنسانية في أجلِّ وجودها الحق الكريم لا تتحقق غاياته إلا إذا تسلَّح أهله وجنوده بالصبر والمصابرة، والمرابطة في سبيل الله، وعلى حدود تقواه، على نحو ما أوصت به قائلة(٣): "**واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾**(٤).

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ج٤، ص١٨٢٨.
(٢) سورة آل عمران: آية ٢٠٠.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ج٤، ص١٨٢٨.
(٤) سورة آل عمران: آية ٢٠٠.

ولما كانت الأم واثقة مطمئنة إلى استقرار ما ألقته في روع بنيها فقد أردفت توجههم إلى أن يُعِدُّوا أنفسهم، ويباكروا للجهاد في سبيل الله على بصيرة ووعي، فالحرب هي الحرب، ولذا لم يكن ليغيب عن خاطرها أنها لا يمكن أن تلقي بأولادها إلى التهلكة، إذ هي ترجو لهم السلامة منذ البداية وأن يكونوا دائمًا على وعي يحقق لهم النصر على الأعداء، ولذا فهي توصيهم قائلة[1]: "**فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين**".

وهكذا يُصنَع الرجال، بل هكذا يُصنَع الأبطال من خلال شخصيات الأمهات المؤمنات الواعيات الواثقات الحافظات المحافظات القويات شرفًا وفكرًا، وعقيدة قولًا وذكرًا ويقينًا..

٣- توظيف النص القرآني:

برعت الخنساء في توظيف النص القرآني إيصالًا لفكرتها ومقصدها في وصيتها عن طريق الاقتباس الذي يعكس مدى تأثرها واستمدادها من عطائه الذي يفيض ولا يغيض على نحو ما صنعت في صلب وصيتها مقتبسة من آي الذكر الحكيم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون** ﴾[2].

حيث اتخذت من الآية الكريمة دليلًا وبرهانًا على صدق قولها، واستمدادًا من قوة تأثيره تغذية لقوة تأثيرها في نفوس أبنائها..

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٤، ص١٨٢٨.

(٢) سورة آل عمران: آية ٢٠٠.

•الخـــــاتـــــمة:

لما كانت "الخنساء" واثقة مطمئنة مؤمنة بأن القعود عــن الجهــاد لا يطيل عُمرًا، وأن الحرب لا تُقصِّر عمرًا كانت وصيتها لبنيها واضحة يقينية بأن يقتحموا أواراها، ويخوضوا وطيسها حتى الفتك بقيادة جيش الأعــداء، فهذا سبيل النصر بإذن الله، أو الخلود في دار المقامة بالاستشهاد في ســبيل الله.

وهكذا جاءت خاتمة الوصية متمتعة بما يأتي:

- إيجازها بصورة جازمة حاسمة معبرة عن شخصية الموصية الواثقة..
- لغتها القوية في مفرداتها، وأساليبها المنوعة، ما بين شرطية محكمة، وإنشائية أمرية حاثة ودافعة.
- اشتمالها على نتيجة حاسمة جلية.

وقد تمثل ذلك جليًّا في ختام الوصية، حيث تقول الخنساء لبنيها(١):

"**وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضــطرمت لظــى علــى سياقها وجللت نارًا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عنــد احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة**".

ثانيًا: اللغة والأساليب:

•الألفاظ والمعاني:

للمفردة اللفظية أهمية بالغة في أي عمل أدبي بصــفة عامــة، وفــن الوصية بصفة خاصة، وذلك لما لها من دور في الكشف عن حقيقة المعنى، وإبراز معالم الجمال، وعلى قدْر اقتدار الموصِي في دقة اختيــار مفرداتــه تكون النجاعة في العمل الوصائي.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ج٤، ص١٨٢٨.

وهكذا جاءت المفردات في وصية الخنساء منتخبة جزلة ومناسبة لطبيعة موضوع وصيتها الجليل والخطير، وعصرها الإسلامي الجديد الذي يختلف عن العصر الجاهلي القديم، غير أنها تبدو كذلك لوضوحها وتجانسها وطواعيتها تبدو مناسبة لعصرنا، وكل عصر بدرجة كبيرة، وإن اشتملت على مفردة أو مفردتين تبدو عليهما سيماء الغرابة، إلا أن ذلك لا يكاد يمثل غرابة لقارئ التاريخ العام أو التاريخ الأدبي الذي يُجلِّي – دون الرجوع إلى معاجم اللغة – الدلالات المعنوية لمثل مفردتَي: "**وطيسها، وخميسها**".

– وتتمثل جزالة مفرداتها في مثل قولها: "**ما هجَّنت، ولا غبَّرت**"، حيث تبدو هاتين المفردتين مناسبتين للتعبير عن أصالة الماضي وصلته بالحاضر الإيماني والمستقبل الكريم.

ومثل: "**الثواب الجزيل**" ومناسبة ذلك للتعبير عن عظيم الجزاء للمجاهدين في سبيل الله.

ومثل: "**شمَّرت، واضطرمت، لظى**" ومناسبة تلك المفردات للتعبير عن الحرب وأهوالها.

ومثل: "**تظفروا، الغُنم والكرامة، ودار الخلد والمقامة**" ومناسبة تلك المفردات لنتيجة الجهاد في سبيل الله.

وقد عُنيتْ الخنساء في وصيتها بأن تأتي مفرداتها منسجمة ومتسقة من خلال تناسبها ترادُفًا، أو تقارُبًا، أو تطابُقًا، على نحو ما يتمثل في مثل قولها: "**أسلمتم، وهاجرتم، وما خُنْت ولا فضحت، أصبحتم، فاغدوا، وقتال، وحرب**".

وقد زخرت الوصية بطائفة من المفردات التي تعبِّر عن ثقافة الموصية الإسلامية وتشرُّبها تعاليم الدين القيم من خلال لغته ومفرداته الثرية القيمة، حيث أعانت الموصية موهبتها بما لديها من ذخيرة لغوية عمل الإسلام على تغذيتها وثرائها بصورة تتسق فيها المفردات مع معاني الوصية وموضوعها وغاياتها. ومن تلك المفردات التي اكتسبتها الموصية وأحسنت

توظيفها مثل: "**أسلمتم، وهاجرتم، ما أعد الله للمسلمين، الثواب، الدار الباقية، والدار الفانية، إن شاء الله، دار الخلد والمقامة**".

•الأساليب وتنوعها:

تميزت وصية الخنساء بصفة عامة بجزالة أساليبها على تنوعها بصورة ناسبت طبيعة موضوعها وجلاله، لكنها جزالة تنم عن عبقرية أدبية، حيث تمزج بين أساليبها خبرية كانت أو إنشائية، أو كانت غير ذلك دون عناء بعيدة عن التكلُّف والتوعُّر، وكأني بها – من خلال لغة وصيتها وأساليبها المتسقة قوة وجلاء وطواعية – تسبق بشر بن المعتمر في رؤيته الدقيقة في صحيفته النقدية القيمة، إذ يقول(١): "وإياك والتوعر؛ فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك".

ولما كانت الوصية وليدة ظرف جهاديٍّ وقتاليٍّ بما يكتنفه من هواجس وقلق، وهو ظرف أحوج ما يكون إلى إعداد وتعبئة تعمل على منح الجنود مقادير من الثبات والثقة، فلم تكن هيمنة الأساليب الخبرية على الوصية بمستغرَبة لما لها من طبيعة تقريرية تناسب ما تريد أن تُقرِّره الأم الموصية في يقين أبنائها، وتثبته في نفوسهم، وتبثه في وجدانهم، على نحو ما تجلَّى في قولها:

"**إنكم أسلمتم، وهاجرتم مختارين، وإنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت...، ولا فضحت...، ولا هجنت...، وقد تعلمون**".

وقد جاءت هذه الأساليب الخبرية في صورة جمل قصيرة موجزة متوازنة ذات لغة آسرة خالية من أية شائبة لتكلُّفٍ، ولذا فإنها تقع في النفس موقع اليقين لصدورها من شخصية واثقة نافذة..

على أن إيثار الموصية الجمل القصيرة الموجزة لم يكن ليثنيها أن تجنح قليلًا إلى شيء من الإطناب ولا سيما في مقدمتها التطمينية، عن

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د.ت) ج١، ص٧٥.

طريق العطف أو النفي لتوكيد ما قررته، والإشارة إلى الآثار المُحتملة لو لم يكن ما قرَّرته حقائق لا مراء فيها، على نحو ما تجلَّى في قولها: "**ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيَّرت نسبكم**".

كما تآزرت هذه الأساليب الخبرية التقريرية مع غيرها من الأساليب ذات الصبغة التوكيدية التي تعمل على تحقيق مقاصد الموصية خير تحقيق على نحو ما استعانت به من أساليب مثل:

أسلوب القسم في قولها: "**والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد**".

وأساليب الشرط بمنطقيتها وإحكامها ونتائجها المطمئنة في مثل قولها: "**فإذا أصبحتم .... فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين**".

وقولها: "**وإذا رأيتم الحرب قد شمرت.... فتيمموا وطيسها، وجالدوا**".

والجمل الاسمية بثبوتها وتوكيدها بإن، وأن، واللام، والجمل الفعلية المؤكدة بمُضيِّها، أو بقد....

ومهما يكن من أمر، فقد كان للأساليب الإنشائية حضور أثير وجليل في الوصية في مستهل مقدمتها من خلال أسلوب النداء بدلالاته التنبيهية والتقديرية التي سبقت الإشارة إليها في الحديث عن بناء الوصية وتوجُّه الخنساء إلى بنيها بمناداتهم: "**يا بَنِيَّ! إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين**".

وكذا من خلال أسلوب الأمر بدلالاته الآمرة المتنوعة تذكيرًا وتوجيهًا، وحثًّا وشحْذًا للهمم، ودفْعًا من الأم الموصية لأبنائها الرجال المؤمنين الأبطال لخوض الجهاد في سبيل الله، على نحو ما كان في قولها: "**واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية**".

حيث تبدو الأم من خلال أسلوب الأمر المتعانق مع أسلوب المقابلة واعظة ناصحة وموجهة ومرشدة تجلِّي لهم أن المفارقة بين الدارين غير متكافئة، ولذا فلا عليهم إلا أن يجاهدوا بكل ما يستطيعون من أجل أن يفوزا جميعًا بها.

وكذا قولها: "**فاغدوا إلى قتال عدوكم ... فتيمموا وطيسها ...، وجالدوا رئيسها ...**".

حيث جاء الأمر في الأولين مقترناً بالفاء الدالة على السرعة والمباشرة دون أي تردد، والأمر المعطوف بعدُ كذلك، فضلًا عما اشتملت عليه ألفاظ أفعال الأمر تلك من معانٍ لغوية دالة على اليقين والقصد والقوة التي جاءت نابعة من أعماق شخصية ما كان أكرمها أصلًا، وما كان أقواها إيمَانًا، وما كان أجدرها أن يخلِّدها التاريخ، ويخلد أدبها!

ثالثًا: الحقيقة والمجاز والتصوير الأدبي:

غلب أسلوب الحقيقة على هذه الوصية مثلما كان الحال في الوصية السابقة، وذلك لنهوض وصية "الخنساء" على حقائق واقعية وإيمانية، سواء أكانت تلك الحقائق متعلقة بالماضي المرتبط بالحاضر الذي لا يمكن أن ينطلق ممثلًا في أبناء الموصية نحو المستقبل بسلام إلا إذا كان الحاضر يتكئ على حقائق ودعائم قوية وأصيلة وشريفة من خلال الأم الموصية، أو كانت الحقائق تتعلق بالحاضر والمستقبل اللذين لا يمكن تحقيق النصر والخلود فيهما من خلال الأبناء إلا بالاعتماد على حقائق الإيمان وتعاليم الإسلام الذي أمرهم أن يُعِدُّوا للقاء عدوهم من القوة كل ما في وسعهم، دون أيِّ ارتياب أو أوهام، على نحو ما تمثل في قول الله عزَّ وجلَّ وهو أصدق القائلين: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾(١).

ومن أمثلة الأسلوب الحقيقيِّ في وصية الخنساء قولها: "إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين".

وقولها: "**إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة**".

وقولها: "**ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم**".

(١) سُورَة الأنفال، آية: ٦٠.

وقولها: "**وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين**".

وقولها: "**الدار الباقية خير من الدار الفانية**".

والأسلوب كما هو واضح في المثال الأول يعلو فوق كل خيال، إذ إن إسلام أبناء الموصية وإيمانهم إنما كان عن يقين، ولذا يجب ألَّا يداخل نفوسهم أية أوهام.

وهو في المثالين: الثاني والثالث يعبِّر عن أن أصالة نسبهم، وسلامة شرفهم، واستواءهم في البنوة حقائق تمنحهم طمأنينة، وتُهيِّئ معدنهم النفيس لاستمدادٍ أقوى كما في المثالين:

الرابع والخامس من خلال اليقين في حقائق الإسلام وتعاليم الإيمان التي تدفعهم إلى أن يجاهدوا الجهاد الحق في ضوء إدراكهم حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة مُعِدِّين لذلك كل ما استطاعوا لمواجهة كل ما يفوق الخيال عن قوة عدوهم، مؤمنين بحقيقة ما أعدَّه الله للمجاهدين في سبيله من نصر كريم في الدنيا، وثواب عظيم والآخرة.

ورغم جلال موضوع الوصية وطبيعته المحفوفة بالمخاطر التي تجعل الموصية أحوج ما تكون إلى الاعتماد على الحقائق إلا أنها حققت المعادلة الصعبة في بناء نسيج وصيتها من خلال المزج بين الأساليب الحقيقية والمجازية بصورة ذكية لما يمكن أن يؤديه الأسلوب المجازي في خدمة الحقيقة ثراءً وقوةً للعمل الوصائي، وإثارة وإقناعًا وتأثيرًا في المتلقي.

المجاز المرسل:

– من أمثلة المجاز مرسلًا في الوصية قول الخنساء لبنيها:

"**ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم**" مجازان علاقتهما الجزئية في كلمتَي: (أباكم، وخالكم) والمراد كل من يتعلق بهما فقد عبَّر الأسلوبان بإيجاز عن أمانة العِرض والشرف، ومسئولية الأم عن نقائه والحفاظ عليه احترامًا وحفاظًا لحقوق الزوج وذويه، وأهليها جميعًا بصورة تحقق لها ولهم جميعًا السلامة والرفعة والعزة.

الاستعـــارة:

– ومن أمثلة المجاز استعارةً: قول الخنساء لبنيها: "**ولا غبـــرت لكـــم نسبًا**" استعارة مكنية جسَّدت النسب في صورة ثوب أبيض نقيٍّ لـــم تشُـــبْه شائبة غبار، وهي استعارة تصور العرض الشريف برداء شـــريف للأهـــل جميعًا.

وقولها: "**الدار الباقية خير من الدار الفانية**" استعارتان تصـــريحيتان تصور الأولى منهما الدنيا بدار تفنى، ولذا لا تستحق أن يتقاتل الناس مـــن أجلها، بينما تصور الاستعارة الثانية الآخرة بدار تبقى، ولذا فإنها هي التـــي تستحق أن يجاهد المؤمنون في سبيلها.

وقولها: "**الحرب قد شمرت عن ساقها**" استعارة مكنية تصور الحرب بمقاتل قد أعدَّ نفسه للقتال، ولذا فإنه يجب على من يخوضها مجاهـــدًا فـــي سبيل الله أن يكون قد أعدَّ نفسه لمواجهتها بكل ما يستطيع.

الكنـــاية:

إذا كانت الكناية تُعَد واسطة بين الحقيقة والمجاز، كما تُعَد أســـلوبًا ذَا أهمية من خلال دلالاته الذكية والمنطقية المركَّزة والموجَزة، فقد كان لها في وعْي الموصية حضور باكر وماهر منذ مقدمة الوصية كما في قولها:

"**إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة**"، كنايتان عن سلامة العرض ونقاء الشرف، واستواء الأبناء في الأخوة.

وقولها: "**فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين**" كناية عـــن ضـــرورة الإعداد بوعْي وبصيرة، والأخذ بكل الأسباب للتوجه إلى قتال العدو، فلـــيس معنى القتال في سبيل الله أن الله سينصر جنوده دون إعداد بكل قوة، وأخْـــذٍ بكل الأسباب.

التصوير الأدبي:

إذا كانت الأساليب السابقة مجازية أو كنائية قد قـــدَّمت لنـــا بعـــض الصور الأدبية المثيرة، فإن الوصية قد ظفرت كذلك من الصور بما قد تعتمد

عناصرها على الحقيقة من خلال أسلوب التشبيه الذي جاء كلا طرفيه يمثل حقيقة مادية، كما في مثل قول الموصية:

"**اضطرمت لظى.. وجللت نارًا..**" تشبيهان بليغان طرفاهما: الحرب مشبهًا، ولظى ونارًا مشبهًا به، يصوران أهوال الحرب كأنها جهنم بلهيبها، ولظاها، غير أنها لا تثني المجاهدين في سبيل الله أن يقتحموها غير مبالين، إذ إن خوضها هو سبيل النصر أو الشهادة.

رابعًا: التكوين البديعي:

للأساليب البديعية حضور ذو مقادير إيقاعية متوازنة في لغة هذه الوصية الجليلة، حيث شكَّلت تلك الأساليب تموُّجًا موسيقيًّا مشبَّعًا بالعواطف الجياشة القوية الصادقة، حيث طفقت الموصية من خلال أساليبه المتنوعة تدق في أسماع، ونفوس بنيها ألوانًا من الأجراس التي يؤدي كل منها دورًا ما من أجل بلوغ الغاية المنشودة من خلال إنشاء هذه الوصية، إذ إن "لكل عاطفة أو معنى نغمة خاصة في الموسيقى والغناء، وهي أَلْيَق به، وأقدر على تمييزه، لأنها صوته الطبيعي، وصورته الحسية الدقيقة"(١).

وقد تنوعت الأساليب البديعية في وصية "الخنساء" من خلال تكوين بديعي متوازن في خصائصه الفنية مع أهمية الموضوع، وشرف المعاني، وسُمُو الأفكار، ودقة التعبير، ما بين سجع أو جناس، أو حسن تقسيم وازدواج، أو حسن تعليل واحتراس، أو طباق..

السجع:

لم تكن الخنساء بدعًا في استخدامها السجع في وصيتها بصورة يبدو فيها أبرز الألوان البديعية وأكثرها شيوعًا في الوصية، وذلك لما يتميز به من بلاغة فطرية، حيث "يجري باطراد في الحكم والأمثال"(٢).

(١) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ص٣٢٢.

(٢) د. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج١، مطبعة السعادة، مصر١٩٣٤م، ص٧٥.

ولذا يقول "أبو هلال العسكري": "أعجب العرب بالسجع .... وصار ذلك الجنس من الكلام منظومًا وسجعًا في سجع"(١).

على أن شيوع السجع في الوصية لا يكاد يشعر المتلقي بتكلُّفه، حيث لم يكن غاية للموصية، ولذا لم تكن لتُصِرَّ عليه منذ بداية وصيتها، كما لم تصر عليه في خضمها، ولذا فقد تحقق في ثنايا الوصية بصور عفوية في خواتيم جُملها القصيرة ومتعلقاتها، المنسوجة من مفردات جلية في بناء لغة قوية تواءم فيها اللفظ مع المعنى على الحد المنشود.

- ومن أمثلته في ختام المقدمة قولها: "**ولا هجنت حسبكم ولا غبَّرت نسبكم**".
- ومن أمثلته في ثنايا الوصية قولها: "**الدار الباقية خير من الدار الفانية**".

وقولها: "**فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين**".

- ومن أمثلته في ختام الوصية قولها: "**تيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة**".

الازدواج وحسن التعليل:

يُعَد الازدواج كذلك من أبرز الأساليب البديعية وأكثرها شيوعًا في وصية "الخنساء" حيث جاءت معظم جُملها على إيجازها مزدوجة متوازنة، تكاد تكون متساوية في مفرداتها ووزنها وجرسها مع حسن تعليل إذا اقتضى الأمر، أو دون تعليل، بصورة تجعل المتلقي يوقن أنه أمام شخصية مقتدرة ومتوازنة تعي كيف تزن الأمور، وتضع كل أمر في موضعه بذكاء واقتدار.

- ومن أمثلة الازدواج دون تعليل قولها: "**ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم**".
- ومن أمثلة الازدواج مقترنًا بحسن التعليل الذي يُعَد في الوقت ذاته نتيجة، قولها: "**تيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها.. تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة**".

(١) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: ص ٢٧٠، ٢٧١.

جاء الازدواج آية في البلاغة لاعتماده على جمل قصيرة أسهل في التلقي، وأسرع في الفهم، وأثبت في ذهن المتلقي وذاكرته.

الطبـــاق:

- من أمثلة الطباق في الوصية تحقُّقه بين لفظتَي: (رجل، وامرأة) في قولها: "**إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة**".

وكذا تحقُّقه بين لفظتَي (المسلمين، والكافرين) في قولها: "**وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين.. في حرب الكافرين**".

وكذا تحقُّقه بين لفظتَي (الباقية، والفانية) في قولها: "**واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية**".

وقد جاء استخدام الطباق لدى الموصية ينم عن عفوية تبتعد كل البعد عن التكلف، فلم يكن استخدامه لمجرد حلية لفظية، أو لإحداث جرس تنغيمي، وإنما كان استخدامه اقتضاء للسياق، واستدعاء للمعنى، على نحو ما كان في المثال الأول، إذ إن الشرف الذي يرثه الأبناء لا يتعلق بالأب وحده، ولا بالأم وحدها، فكلاهما يتكاملان في الحفاظ على دائرة الشرف المحوطة بسياج أمانها.

كما أن الحديث في المثال الثاني عن الدنيا الذي لا يخفى على أحد وصفها بالفناء، يستدعي أهل الإيمان الذين لا يعملون للدنيا فقط أن يتحدثوا عن الآخرة، ولما كانت تناقض الدنيا، فقد كان طبيعيًا أن توصف الآخرة بأنها الباقية، والطباق هنا يجلي شاسع الفرق بين الدارين، وبُعْد البون بين العاقبتين.

في حين جاء الطباق في المثال الثالث بين فئتين من الناس: المسلمين الذين أسلموا لله وعبدوه، والكافرين الذين جحدوا عبودية خالقهم، وهما في حال حرب، ولا ريب في أن جزاء الله العظيم هو جزاء المسلمين.

الجناس والاحتراس:

الجناس والاحتراس لونان بديعيان أثيران لما لهما من دور أثير، لا ينحسر على مستوى اللفظ والشكل، بل يتجاوز ذلك إلى المعنى والمضمون، ولا سيما إذا لم يتمحّل الأديب حَشْو بناء النص بهذا اللون أو ذاك.

وقد تحقق كل لون من اللونين السابقين في وصية الخنساء مرتين:

حيث تحقق الجناس بين لفظتي (مستبصرين، ومستنصرين) في قولها: "اغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين".

كما تحقق بين لفظتي (ساقها، وسياقها) في قولها: "الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها".

- وتحقق الاحتراس من خلال تعبيرها بكلمة (سالمين) في قولها: "**فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين...**".

كما تحقق من خلال تعبيرها بكلمة (مستبصرين) في قولها: "**اغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين**".

إذا كان عدم تقيد الموصية في تجنيسها بكونه تامًّ كما في المثال الأول، أو اشتقاقيًّا في المثال الثاني يُعَد ذَا دور ما في الابتعاد عن التكلف، حيث أدَّى دوره خير أداء بحُسن وقعه وإيقاعه، واتساقه المعنوي المناسب للظرف الجهادي الذي عبر عنه بنسق بديع، فإن عدم الإسراف في استخدامه كذلك يكون له دور أصيل في تقوية أثره، وكذا أثر الاحتراس الذي جاء متعانقًا مع الجناس نافيًا عن الموصية وصفها بشيء من الهَور الذي قد يؤدي إلى هلاك بنيها، وعدم تَحلِّيها بالحذر في مثل هذا الظرف رغم الإيمان بالقدر.

الفصـــــــل الثالث
الوصيتان والموصيتان في ميزان النقد الأدبي

الفصـــــــل الثالث

الوصيتان والموصيتان في ميزان النقد الأدبي

أود قبل أن أبدي رأيي النقدي حول بعض النقاط التي تتصل بدراسة هاتين الوصيتين في جانبيها التحليلي ثم الفني أن أشير إلى أنها قد اصطبغت في كثير من مناحيها بصبغة نقدية تسعى لإبراز قيمة النص الأدبي وجماله، والأثر الذي ينشئه لدى المتلقي في فكره ووجدانه، إذ إن معايشة النصوص الأدبية وتذوقها، وتفهُّمها، والغوص وراء أسرار الجمال فيها، ومراعاة الظروف والملابسات حسب اختلاف الموضوعات، وإدراك القواعد اللغوية والبلاغية، كل أولئك هو الطريق إلى بعث النقد الأدبي والدراسة النقدية(١).

المبحث الأول: الموصيتان في ميزان النقد الأدبي:

الأدب نشاط اجتماعي وإنساني يعبر عن معاناة الإنسان حيال آلامه وآماله، وهواجسه وطموحاته، ويعالج نوازعه أينما كان وفي أيِّ زمان من خلال رؤاه المختلفة واقعية كانت أو غير ذلك من خلال إنشائه الأدبي الذي "ينبع من الفرد بوصفه كائنًا اجتماعيًا يمارس الحياة الاجتماعية، وينفعل بأحداثها، ويتأثر وجدانه بحقائقها الموضوعية، ويؤثر بدوره فيها على قدر وعيه لقوانين تطورها، وعلى قدر فهمه لضروراتها الاجتماعية"(٢).

ودراسة الشخصية المنشئة للأدب لا تقل أهمية عن دراسة النص الأدبي، إذ إن وراء الإبداع مبدعًا، ولولا المبدع ما كان إبداع..

ولذا وجب تناول الشخصية التي أنتجت لمجتمعها تلك الوصية التي تجاوزت بإبداعها الممثل لشخصيتها حدود مجتمعها المحدود عابرة بإبداعها الراقي إلى الإنسانية ما وسعها من حدود.

---

(١) د. عبد العزيز الدسوقي: تطور النقد العربي الحديث في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، ص٦١.

(٢) حسين مروة: دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي، مكتبة المعارف، بيروت، ص٩٣.

أولًا: شخصية "أمامة" في ميزان النقد الأدبي:

•واقعية "أمامة":

تقرر سلفًا أثناء الحديث عن منشئة الوصية، تمتعها بشرف الأصل والسيادة والثراء، وهي أمور قد تنأى بمثلها عن رؤية الواقع بكل ما فيه والإحساس بكل تفاصيله البيئية، غير أنها لسعة أفقها وتوقع الانتقال إلى بيئة أخرى، بدت شخصية واقعية منسجمة مع نفسها وواقعها، ومهيئة ابنتها للانسجام مع واقعها الجديد.

وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال قولها لابنتها بواقعية نوعية عن طرفي الإنسانية: "**النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال**".

كما تجلى من خلال قولها بواقعية بيئية متوازنة: "**إنك فارقت ..... لم تألفيه**".

•شخصية أمامة والمبالغة:

بدت شخصية أمامة واقعية إلى حد كبير على نحو ما تجلَّى في المَعْلم السابق، غير أنها في بعض الأحيان تبدو مجلَّلة بمقادير من المبالغة التي قد تبدو زائدة، على نحو ما يتجلى في قولها: "**وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا**".

حيث إن عبارة التملك "بملكه عليك" قد تعني صيرورة الزواج مؤديًا إلى تملُّك الرجل للمرأة رغم جلال العلاقة الإنسانية بينهما، وهو ما يشي بشيء من التناقض مع الواقعية الراقية الدقيقة المقررة سلفًا.

على أن الذي يوضع في الاعتبار هو صدور ذلك عن الموصية من خلال ما لديها من موروث جاهلي، كما أنها أردفت بما يخفف من وقْعه، ويقيم ما قد يكون من تناقض من خلال تعبيرها الوصائي المتوازن في قولها: "كوني له أمة يكن لك عبدًا".

•أمامة بين قوة الشخصية وعاطفة الأمومة:

برزت شخصية "أمامة" على مدار الوصية قوية قادرة على توجيه الأوامر لابنتها نصحًا وإرشادًا وتوجيهًا أحيانًا، ونهيًا للتنبيه والتحذير أحيانًا

أخرى، لكن قوتها في ذلك كله لا تبدو قوة الشخصية المستبدة والمتسلطة، وإنما هي قوة الشخصية المسئولة.

وليس معنى ذلك كذلك أنها بقوة شخصيتها ليست ذات عاطفة حانية، حيث تتمتع بعاطفة جياشة حكيمة تستطيع أن تشكلها بصدق حسب المواقف ومنحنياتها، رقة وتحنانًا من خلال رقة وسلاسة ألفاظها وأساليبها حينًا، ووعيًا وحكمة من خلال دقة تعبيرها حينًا آخر، وقوة ومسئولية وواقعة واستشراف للمستقبل من خلال لغتها بصفة عامة.

•شخصية "أمامة" بين التاريخ والفلسفة:

التاريخ شاهد أمين، وسجل خالد حافل بكل نتاج إنساني رفيع، وهكذا استحقت "أمامة بنت الحارث الشيباني" أن يخلدها التاريخ بشخصيتها التي تَحلَّت في وصيتها الخالدة بمقادير جليلة من الحكمة والمنطق، والفكر المنظم والمعلل الذي بلغ بها إلى أن ترتدي رداء الفلاسفة ومحبي الحكمة، إذ تؤدي للإنسانية خلاصة خبرتها وفلسفة أمومتها بروح الأم المسئولة على الصورة المأمولة.

ثانيًا: شخصية الخنساء في ميزان النقد الأدبي:

تمتعت شخصية الخنساء بروافد عدة عملت على تشكيل شخصيتها بعضها موروث، أو يجمع بين الميراث والاكتساب مثل: الشرف والسيادة والفصاحة، وقوة الجاذبية والشاعرية في الجاهلية، وبعضها مكتسب عن قناعة ووعي وبصيرة في ضوء هدى الإسلام وتعاليمه التي تشربتها نفسها بصدق حتى استوت شخصيتها شخصية تاريخية فذة، تبدو أهم معالم حياتها على النحو الآتي:

•شخصية الخنساء القائدة الرائدة:

دراسة شخصية الخنساء تكشف عن تمتُّعها بثراء وتنوع في تلك الروافد تضافرت وتآزرت في تشكيل شخصيتها قوية منذ كانت فتاة يافعة لها رأيها المقدر لاختيار من يكون لها زوجًا في مجتمع جاهلي، وهذا يعني أنها قادرة على قيادة ذاتها، ثم بدت شخصيتها بارة رائدة من خلال وفائها بقوة

شاعريتها في رثائها لأخيها صخر الذي صار على كل لسان، ثم بدت شخصيتها قائدة قومها من خلال الدخول في الإسلام.

وهكذا بدت شخصيتها القائدة الرائدة على سجيتها واثقة في وصيتها التاريخية لبنيها في ظرف تُختبَر فيه النفوس والعزائم، فإذا بها تقدم للتاريخ شخصية الأم النادرة صانعة من أبنائها أبطالًا يخوضون الحرب في سبيل الله لينالوا الشهادة جميعًا.

•شخصية الخنساء بين المبالغة وواقعية الإسلام:

قد يرى البعض أن شخصية الخنساء من خلال وصيتها لبنيها تُعَد ملقية بيهم إلى الهلاك جميعًا، حيث كان يمكنها أن تشجع بعضهم، وتستبقي البعض الآخر منهم حتى لا تفقدهم جميعًا..

وإذا كانت الروايات الصحيحة تذكر بواقعية أن الرسول ﷺ كان يرخص في الجهاد لأحد الأبناء أن يبقى ليقوم على رعاية الأمهات والآباء(*)، فليس معنى ذلك الدعوة إلى القعود، أو سوء فهم حقيقة الإيمان بالله والقدر الذي لا يمنعه حذر، ولكن العمل بالرخص التي رخصها الإسلام شيء غير مستكره، والرسول ﷺ من نهجه الكريم العمل بالرخص، واختيار الأيسر.

على أنه إذا كانت الرخص يستحب العمل بها، فليس معنى ذلك أن تُتَّهم الخنساء بأنها ألقت ببنيها إلى التهلكة، وهي تؤمن بقول الله تبارك وتعالى(١): ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾.

كما أنه قد يوضع في الاعتبار كذلك إيمانها بالموروث العربي للمرأة العربية التي لا تفرق بين أبنائها، إذ "هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها" ولذا قالت لهم في مستهل وصيتها: "والله إنكم لبنو رجل واحد، كما

(*) من ذلك ما رواه عبد اللَّه بن عمرو بن العاص – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال أقبل رجل إلى نبي اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم – فقال: أُبايعك على الهِجْرَة والجهاد؛ أبتغي الأجر من اللَّه تعالى. فقال: "فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟" قال: نَعَم؛ بَلْ كلاهما. قال: "فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟" قال: نَعَم.. قال: "فَفِيهِما فَجَاهِدْ". ــ متفق عليه.

(١) سورة الجمعة، الآية: ٨.

أنكم بنو امرأة واحدة" ولذا فهي لم تُلق بهم إلى التهلكة، وإنما ألقت بهم إلى البطولة والخلود.

•الخنساء بين قوة الشخصية وعاطفة الأم:

قوة الشخصية التي عرفت بها الخنساء، وصارت لها لازمة تبدو نموذجًا للأم المسئولة التي لم يكن همها ليتمثل في مجرد مشاركة بنيها في الحرب، وإنما كان همها هو أن يقوم أبناؤها بأعظم الأدوار حين يشتد لظاها، إذ يقتحمونها إلى قلب قيادتها حتى يتحقق النصر والظفر، ونيل الكرامة في دار المقامة.

"**فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرَتْ عن ساقها، واضطرمت لظًى على سياقها، وجللت نارًا على أرواقها، فتيمموا وَطِيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها**".

وليس معنى ذلك انها ليست ذات عاطفة جياشة منذ أول كلمة في وصيتها قائلة لهم: "**بني...**" غير متخلية عن أمومتها مهما بلغ أبناؤها من الرجولة، ومهما كان الظرف ثمن البطولة.

وقد بدت عاطفتها فطرية، ثم تحولت إلى عاطفة قوية، بل سوية فائقة، إذا هي لا ترجو لبنيها الفوز في الحياة الدنيا فقط، وإنما ترجو لهم الخلود ذكرًا وحياة لا نهاية لها في نعم مقيم في الحياة الآخرة.

•شخصية الخنساء بين الفلسفة والتاريخ:

تبقى الخنساء بشخصيتها المخضرمة تعد إحدى الشخصيات العربية التاريخية جاهليًا من خلال فلسفتها الشعرية التي أهَّلتها إلى الحكم بأنها "أشعر الجن والأنس" ثم إسلاميًا من خلال فلسفتها الإيمانية التي عملت على تطوير شخصيتها التي بدت من خلال عبقريتها الواعية لا بالدنيا فقط، بل بالدنيا والآخرة من خلال وصيتها لبنيها، وتصبُّرها بصورة تجعلها من أوصى وأصبر أهل الأرض.

وهكذا كان تأثرها بالإسلام، حيث لا ثأر في الإسلام، ولا نار لمن استشهد في سبيل الله.

المبحث الثاني: الوصيتان في ميزان النقد الأدبي

أولًا: وصية أمامة في ميزان النقد الأدبي:

ـ الوصية ووحدتها الموضوعية:

نبعت الوصية من رحم ظرف مهم، لكنه ظرف فرح وسعادة، وقد تحلت الوصية بوحدة موضوعية لصدورها عن شخصية متبصرة واعية تعي ظرفها الآني بحكمة قائمة على أسس ومراس بظرفها الماضي الأثير بموروثاته الأصيلة الجميلة، وهو ما يمنحها القدرة على محاولة استشراف مستقبل ابنتها عروس ذلك الظرف السعيد، حتى تدوم سعادتها وهناءتها بزواجها في حياتها الجديدة.

وقد أعان على تحقُّق وحدة الوصية تمتعها بتسلسل فكري جلي منطقي منظم من بداية الوصية التي تعلن عن أن تزاوج نوعي الإنسانية أمر فطري، ولذا فإنه يترتب على ذلك حياة جديدة، ونقلة لابد منها بالنسبة للأنثى.

ولذا أرادت الأم الموصية أن تزيل – بذكاء من طرف خفي – من نفس ابنتها ما يمكن أن يتولد لديها من شعور بوحشة هذه النقلة، كما أرادت لها بعد ذلك أن تحيا ملكة متوجة، إذ تمنح قرينها كذلك التتويج ذاته، وفي سبيل هذه الحياة السامية قدمت لها الأسس التي تعد قوام هذه الحياة السعيدة التي نصت عليها في ختام وصيتها بالوصول إلى هذه الغاية واستدامتها.

ـ الوصية لغة العقل والحقيقة:

لغة النثر بصفة عامة هي لغة العقل، وإن لم يخلُ من عاطفة وإثارة للوجدان، وهو كذلك للحقيقة أقرب، وإن لم يخلُ من خيال، ولا سيما فن الوصية بما له من خصوصية تجعل الاعتماد على الحقائق أساسًا وقوامًا تنهض عليه، وتؤدي رسالتها بالنسبة للموصَى له والمتلقي خير أداء.

على أن الموصية حققت المعادلة الصعبة حيث نجحت في المزج بين الحقائق في وصيتها، والخيال الذي وظفته ببراعة لإبراز ما تحمله الحقائق من معانٍ ودلالات، وما تبشر به من ثمار، وما يتولد عنها من جميل الآثار من خلال مفرداتها منتقاةً مناسبةً وأساليبها متنوعةً ثريةً بمدلولاتها الحقيقية،

وإيحاءاتها وأبعادها الثرية، ومظهرها الأنيق، ونسقها الهندسي، وإيقاعها الموسيقي، بدرجة يكاد المتلقي يحسب معها أنه لا يتلقى نثرًا، بل يتلقى شعرًا ينساب انسيابًا في رقة ودقة تمثلت من خلاله عاطفة الموصية شفيفة جياشة، رقيقة حكيمة ودقيقة.

ـ وصية أمامة بين الإيجاز والاقتضاب:

زخرت وصية "أمامة" بقدر جليل من الحكمة والإيجاز لما تمتعت به من ألفاظ وأساليب دقيقة، وعبارات سديدة، ولغة بليغة جعلتها تعد بحق من حكماء عصرها.

ورغم تحليها بذلك ممزوجًا بتعليل أو احتراس دقيق إلا أنها أحيانًا لم تكن لتتحلى بذلك في ذكر لبعض الخصال التي نصحت بها ابنتها، على نحو ما تمثل في قولها: "**والمعاشرة بحسن السمع والطاعة**"، وقولها: "**وكوني أشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة**".

فقد قامت الموصية بنصح ابنتها بخصلتين جليلتين هما "الطاعة" و"شدة الموافقة" للزوج دون احتراس منها أو تكميل لذلك على نحو ما تَحلَّت به من صُنْع حكيم في كثير من الخصال ببيان فيما تكون الطاعة، وعلى أي شيء تكون الموافقة؟

على أن الذي يوضع في الاعتبار كذلك أن تعبيرها جاء معبِّرًا عن ثقافة موروث جاهلي، ولكن لما كانت الوصية ذات قيمة فكرية وأدبية واجتماعية خالدة التأثير جعلتها محلًّا دائمًا للتداول والتدارس، والعمل بما فيها لدى كثير من المستويات المجتمعية، لذا كانت هذه المعالجة.

ـ الوصية بين تأثر الموصَى لها وأثرها الأدبي والتاريخي:

لا ريب في أن للوصية أثرًا عظيمًا في الموصَى لها، بل في كل من يتلقاها بوعي وتذوق، على أن ما ذكره التاريخ من خلال مصادره الأولى لدى رواة الأدب وأخبار رواده منه ما لا يكاد يستقيم نتيجة وأثرًا للتأثر بالوصية لدى ابنة الموصية، حيث ذكر الرواة بعد نص الوصية مسبوقة بالحديث عن الموصية ومناسبة الوصية أن ابنتها تم زفافها إلى زوجها،

حيث "حملت إليه فعظم موقعها منه، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن"(١).

فليس معنى ذلك أن العمل بالوصية يؤدي إلى ميلاد الملوك، كما أنه ليس معنى ذلك إجهاض ما تحمله الوصية من قيم ونصائح، وتنبيهات وتحذيرات، وحكم وأمثال سائرة الآثار ما تعاقب الليل والنهار، ولكن المعوّل عليه هو إبراز قيمتها الأسمى التي تسمو بحياة كل رجل وأنثى.

ولذا تعد هذه الوصية لقيمتها الأدبية والإنسانية دستورًا اجتماعيًا لعصرها، ووثيقة اجتماعية تاريخية معطاءة لغيره من العصور والمجتمعات الإنسانية، حيث استحقت أن تظفر بها مصادر الأدب قديمًا ودراساته ومقرراته حديثًا وإلى ما شاء الله تعالى.

ثانيًا: وصية الخنساء في ميزان النقد الأدبي:

ـ الوصية ووحدتها الموضوعية:

نبعت الوصية من أتون ظرف دقيق لا مجال فيه للتهويم، أو الابتعاد عن العمل المنظم، بل الدقيق، وهو ما تمثل بقدر كبير في هذه الوصية التي تحلت بوحدة موضوعية من مقدمتها إلى خاتمتها، حيث بدت لُحمة واحدة في تسلسل فكري دقيق، حتى بدت من قوة وحدتها شديدة الالتحام بين الموضوع والخاتمة بنتائجها حتى لكأن الخاتمة بنتائجها هي الموضوع، إذ إن الحرب في الإسلام ليست غاية، وإنما الغاية هي إقامة الحق والعدل والخير للإنسانية في الدنيا والآخرة.

ولذا فقد استعانت في معالجة موضوع وصيتها بالاقتباس من قول الله جل جلاله(٢): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾.

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه، ج٦، ص٨٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٠٠.

لقد جاء ختام الموضوع متعانقًا مع النتيجة في الخاتمة من خلال طلب وجواب لم يتجاوز السطر الواحد في قول الموصية: "**وجالدوا رئيسها عن احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلود والمقامة**" تلك الدار التي لم تكن تعرفها هي وبنوها الشهداء إلا من خلال الإيمان بهدى الإسلام الذي استهلت وصيتها بالحديث عنه ليلتئم حديثها الوصائي من مقدمته إلى خاتمته خير التئام.

ـ الوصية لغة العقل والحقيقة:

إذا كان النثر هو فن القول غير الموزون على خلاف الشعر الذي يختلف كذلك في لغته التي يغلب عليها الخيال الذي هو أقرب إلى الوجدان فإن النثر يركن في الغالب إلى الحقيقة لغة وفكرًا بصورة أقرب إلى العقل..

وهكذا وصية الخنساء لبنيها معتمدة على الحقائق: اجتماعية وواقعية، كانت، أو إيمانية يقينية من خلال فكرتها عن الجهاد في سبيل الله وثوابه واضحة جلية وضوح الشمس في كبد السماء، حيث تذكر من أول الوصية بفكرة الإسلام الحق الذي لا إكراه فيه، ثم تنتقل إلى فكرة أن المسلم يعلم أنه يحيا مرتين: حياة قصيرة فانية هي حياة الدنيا، وحياة أخرى باقية خالدة هي الحياة الدنيا، ولذا فين الحياة الذي يعوِّل عليها أهل الإيمان هي حياة الخلود عن طريق حياة الدنيا بالإسلام الحنيف والجهاد في سبيل الله الذي يحقق لهم الظفر والكرامة.

ـ وصية الخنساء بين الإيجاز والاقتضاب:

إذا كانت وصية "أمامة" قد جمعت الإيجاز والجمال اللغوي والأدبي، فإن وصية "الخنساء" بما اكتسبته وأضيف إلى رصيدها الفكري والأدبي بالإسلام فإنها أكثر إيجازًا، وأقوى لغة، وأكثر جلالًا، وذلك لجلال موضوعها، وقوة تأثيرها في الموصَى لهم، وجليل أثرها التاريخي عليهم.

على أنه قد يُرَى أن الإيجاز قد يبلغ أحيانًا درجة الاقتضاب الذي كان بحاجة إلى شيء من الاطناب في مثل حديثها عن الإسلام والهجرة اختيارًا في مقدمة الوصية حديثًا مجردًا، وكذا جاء حديثها في الخاتمة عن غاية

الجهاد مقتضبًا يعلو فوق كل غاية، غير أنها قد خلت من النص على الظفر بأولى الحسنيين وهي النصر.

وإذا كان مراعاة حال السامع وشخصيته، أمر لا يمكن إغفاله، إذ إن الموصية تعلم أنها تخاطب أبناءها الذين تعرف قدر فطنتهم وإيمانهم، فإن الأمر صار يحتاج إلى تقدير آخر يتعلق بغير الموصَى لهم، حيث صارت الوصية مرجعًا ومنهلًا ينهل منه الدعاة ويعلُّون من حين إلى حين لذا فقد كان للنقد موقعه وتقديره.

ـ الوصية بين التأثر والأثر الأدبي والتاريخي:

جاء تأثُّر الموصى لهم بوصية أمهم المؤمنة الصادقة والأديبة السامقة فوريًا، كما جاءت استجابتهم لربهم – من خلال ذلك – سريعًا صادقًا من أبناء مؤمنين (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) فلبوا نداء الجهاد في سبيل الله، ونالوا الشهادة والخلود.

ولصدق الوصية وقيمتها الإيمانية والأدبية والإنسانية السامية فقد فاق أثرها كذلك حدود الموصى لهم الذين بذلوا حياتهم في الدنيا ليحيوا حياة خالدة باستشهادهم في سبيل الله، وتحيا كذلك وصية أمهم خالدة على مر الزمان ورمزًا للبطولة والفداء، والصبر والثبات مهما كان المصاب في سبيل الوطن العزيز والعقيدة القيمة القويمة.

الخـــــاتمــة

الحمد لله في الأولى والآخرة، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد ﷺ، وآلــه، وجميــع مــن تبعــه باجتهــاد وإحسان..

وبعــد

فإن هذه الدراسة – على ما بُذل فيها من جهد – قد شفَّت عن عدد من النتائج التي يعد من أبرزها ما يأتي:

١- فن الوصية فن أدبي أثير يتمتع بخصائص وسمات تمنحه مقادير مــن الجلال وقوة التأثير والخلود.

٢- جاءت وصيتا "أمامة" و"الخنساء" شاهدتين على مدى مــا تمتعــت بــه شخصية المرأة العربية من وعْي فكري ودور إيجابي نحو مجتمعها في العصر الجاهلي لدى "أمامة"، ثم لدى الخنساء التي تطورت شخصــيتها في العصر الإسلامي، حيث بدت قائدة ورائدة، وصانعة للأبطال.

٣- للمرأة دور أصيل، وركن ركين في الحياة لا تكتمل إلا به فــي أســعد صورة فرحًا، وأحن صورة ترحًا، وأقوى صورة حربًا وجهادًا، وأدْوَم صورة جمالًا وميلادًا، وتربية ورعاية وحنانًا في كــل فصــول حيــاة الإنسان.

٤- جاءت وصية "أمامة" جامعة إلى حد كبير، حيث لم تكد تدع للابنة شيئًا يعمل على تهيئتها ليلة فرحها أحسن تهيئة، لتنعم في حياتهــا الجديــدة بالزواج، وتؤدي رسالتها الأنثوية خير أداء.

في حين جاءت وصية "الخنساء" دُرَّة في جبين التاريخ، حيث ضربت فيها أروع الأمثال بثباتها وشجاعتها، وصبرها وإيمانهــا، ووعيهــا الــذي تجاوزت به مجرد الوعي بالحياة الدنيا في شتى الظروف وأصعبها، حيــث تجاوزت رؤيتها نتائج الحرب والجهاد نصرًا أو شهادةً في الدنيا إلى التبشير واليقين بالخلود في الحياة الآخرة.

٥- قدمت "أمامة" نموذجاً راقيًا للمرأة العربية، إذ تعمل في وصيتها على غرس الثقة في نفس ابنتها، وتشكيل عقليتها، والعمل على إيقاظ حسٍّ المسئولية لديها بصورة تؤهلها لقيادة ذاتية وموضوعية بمشاركة طرفها الثاني في تآلف وانسجام.

في حين قدمت "الخنساء" نموذجًا متكاملًا للمرأة العربية المسلمة من خلال بطولات بنيها التاريخية التي لم تكن لتتحقق إلا من خلال منابع تربوية وإيمانية قامت فيها الأم بدورها خير قيام، حيث أقامت حياتهم على التمتع بحق الاختيار والإيمان بيقين دون إجبار.

٦- عبَّرت أمامة من خلال وصيتها عن مدى وعي المرأة العربية بحقوق الرجل واحترام كيانه في صورة ملك متوَّج حتى من قبل أن تقترن به.

في حين عبرت الخنساء عن مدى تقديرها واحترامها للرجل حتى بعد فراقه، فضلًا عن تقديرها وصيانتها لحقوق أهليها وبنيها جميعًا.

٧- نجحت أمامة والخنساء في تجاوز حدود دائرة الانغلاق ذات التفكير الأحادي التي كثيرًا ما يخطئ الآباء والأمهات، إذ يتركون أبناءهم يحيون في فراغها بصورة قد تورثهم التعصب، والنكوص والتقوقع، والانغلاق على الذات.

٨- تمتعت الوصيتان بوحدة موضوعية دقيقة من خلال وحدة موضوع كل وصية منهما، وتلاحم عناصرها، ومتانة نسجها، وترابط أفكارها وتسلسلها، وإن بدت وصية الخنساء أكثر تماسكًا وأقوى بناءً.

٩- اعتمدت الموصيتان في بِنَاء وصيتيهما على الحقائق، غير أنهما لم تتخلَّيا عن المجاز الذي أحسنتا توظيفه لخدمة الحقيقة بصورة تجعلهما قد حققتا المعادلة الصعبة في المزج بين الحقيقة والمجاز، وإن بدت وصية الخنساء أكثر إيجازًا.

١٠- جاءت الوصيتان من خلال لغتهما نموذجًا أدبيًا رفيعًا لفن الوصية في لغتها البليغة التي اتسمت لدى "أمامة" بأناقتها وجمالها، كما اتسمت لدى "الخنساء" بسموها وجلالها وذلك حسب طبيعة كل وصية منهما.

١١- تمتعت الوصيتان بحضور بديعي متنوع ذي تكوين فني متوازن، ومتسق مع طبيعة كل موضوع دون تكلف غالبًا.

١٢- التأكيد على أن عودة الإنسان بين الحين والآخر إلى اجترار الماضي، إنما يكون من أجل تأصيل الهوية، وربط تطورات الحاضر بعبق الماضي برباط وثيق قادر على مواجهة تحديات الحاضر، والاستعداد للمستقبل.

والحمد لله في الأولى والآخرة..

المصـــادر والمراجع

أولًا: المصـــادر:

- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج١.
- د. أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، ط١، ج١.
- أسامة بن منقذ: لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة الرحمانية ١٩٣٥م.
- الجاحظ: البيان والتبيين، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د.ت) ج١.
- جلال الدين القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تعليق د. محمد خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ج٢، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٧٥م.
- ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق على محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت: ١٤١٢ه – ١٩٩٢م، ج٧.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صابر، بيروت، ١٩٧٨م ج٦.
- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابـــه ونقـــده، تقـــديم وشرح: د. صلاح الدين الهواري، و ا. هدى عـــودة، ج ١، ط مكتبـــة الهلال للطباعة والنشر، بيروت ١٤١٦هـــ.
- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت، ٢٠٢٠م.
- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ١، دار الكتب السلطانية ١٩١٦م.
- ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج٤.
- ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيـــد الترخينـــي، دار الكتـــب العربية، بيروت، ١٩٨٣م، ج٧.
- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٩ه.

- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٠.
- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق: محمد علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٧١م.
- د. محمد نايف الدليمي: جمهرة وصايا العرب، دار النضال، بيروت، ١٩٩١م، ج١.

ثانيًا: المراجع:

- أحمد الشايب: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب البلاغية، مكتبة النهضة المصرية، ط ٨، ١٩٩١م.
- أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، القاهرة ١٩٤٦م.
- د. بدوي طبانة: علم البيان، دراسة تحليلية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.
- د. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، ط ٣، ١٩٩٢م، بيروت، لبنان.
- د. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج١، ط٢، مطبعة السعادة، مصر ١٩٣٤م.
- السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٩٩م.
- د. صلاح الدين الهادي: الأدب في عصر النبوة والراشدين، مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٨٧م.
- د. عبد العزيز الدسوقي: تطور النقد العربي الحديث في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.
- د. عبد العزيز عتيق: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٧٤م.

سادساً :
القانون